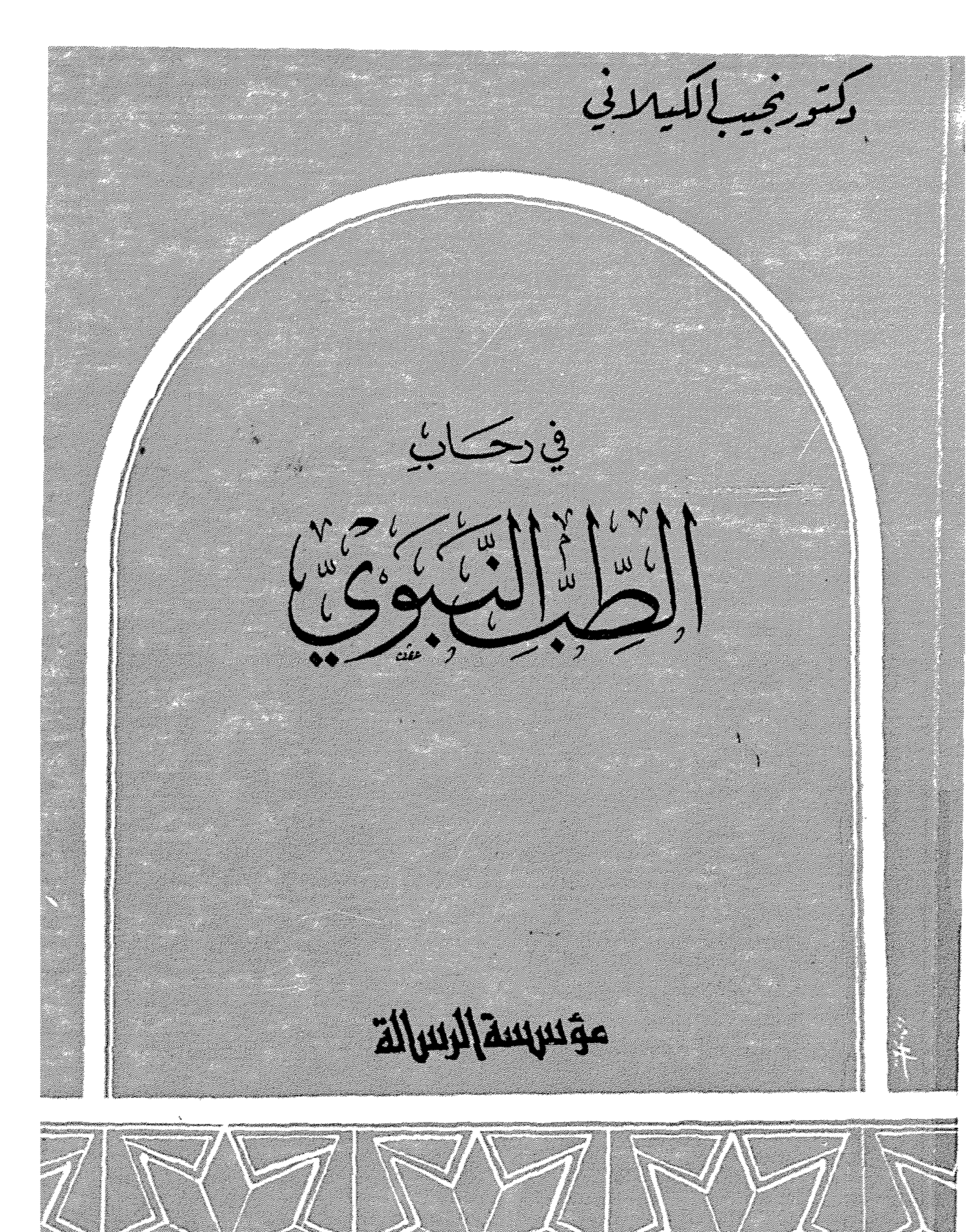

دكتور نجيب الكيلاني
في رحاب
الطب النبوي
مؤسسة الرسالة

في رحاب

الطِّبِّ النَّبَوِيّ

الطبعة الرابعة

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م



مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

الدكتور نجيب الكيلاني

في رحاب

الطِّبِّ النَّبَوِيِّ

مؤسسة الرسالة



في رحاب

الطب النبوي

الطب النبوي مجال رحب فسيح ، ونحن نتناوله هنا بايجاز كبير ، بأسلوب البحث العلمي المحايد الذي يستند إلى الدليل والبرهان والتجربة ، وبهذا الخصوص توفرت لدينا ، النصوص الصحيحة من أحاديث رسول الله ﷺ ثم السلوك الحي لمحمد وصحابته ، ثم تأتي بعد ذلك الدراسات الحديثة التي تثبت بالدليل القاطع ، والتي حاولنا أن نعقد بينها وبين تراثنا المقارنات الواضحة دون تحيز أو تحايل أو انفعال ذاتي ، فالموضوعية في مثل تلك الدراسات العلمية أول ما يلزم الباحث الجاد المنصف ... ومن المؤسف حقاً ان تراثنا العريق في العلوم عامة ، وفي الطب خاصة ، قد ترجم منذ قرون إلى اللغات الاوربية ، فكان أساس نهضتها وتقدمها ، فبدأوا من حيث انتهينا ، بينما توقفت جهود الأقدمين ، وتعثرت خطواتهم في أنحاء العالم الاسلامي المتمزق، وذلك لانحسار الثقافة الاسلامية وغلبة المفاهيم

المستوردة المنحرفة وتجاهل التراث .. العظيم الـــذي يغص بالكنوز وبألوان المعرفة الحية الخالدة ..

لقد بدأت رحلة الطب النبوي الشريف من الداخل .. من قلب الانسان وضميره ونفسه ، ثم شملت بدنه ، وانتقلت إلى بيئته التي يعيش فيها ، وإلى أفراد المجتمع الذي يخالطه واهتمت بالجوانب العلاجية والوقائيـــة والغذائية والترفيهيـــة ، وعلاقته الاجتماعيـــة المتنوعة ، ووضعت الانسان تحت منظار من الفهم الدقيق ، والوعي الشامل ، في اطار منهاج متكامل لا يغفل جانباً من الجوانب ، في حياة الفرد ، ولم يغفل حتى الجوانب الشديدة الخصوصية كالمسألة الجنسية فتعرض لها بشجاعة وادراك ، كجزء هام من حياة الرجل والمرأة فوضع لها آدابها ، والاحتياطات الواجب اتخاذها ، والهدف من ورائها ، وحصنها بالتوصيات التي تحميها من الخلل ، أو تنحرف بها عن الجادة ...

وربط الطب النبوي بين الصحة والعبادة ، فكانت الصلاة وكان الصوم ، وكان الوضوء ، وكانت الرياضة ، وكانت قواعد الغذاء والشراب والنوم والراحة ، وكان العلاج والوقاية ، كل ذلك في نسيج واحد ..

الحق أن الطب النبوي جانب من جوانب الاعجاز التي يزخر بها ديننا الحنيف ، وسوف نحاول في هذه الصفحات أن نسلط الأضواء على معالمه الأساسية والله من وراء القصد...

الطِّبُّ النَّبَوِيّ وَمفهُوم الصِّحَّةِ وَالعِلَاج

لعل من الأمور الملفتة للنظر تلك الشمولية أو ذلك التكامل الذي تتصف به ... العقيدة الاسلامية فكراً وسلوكاً ، فلا نكاد نسأل عن قضية من القضايا أو مسألة من المسائل أو علما من العلوم الا ووجدنا قدرا لا بأس به – قل أو كثر – في تراثنا العريق ، وهذا لا شك جانب من جوانب الاعجاز ، تتجلى فيه القدرة الالهية ، فيزداد الانسان ايماناً ويقيناً ويظل يرد النبع الصافي للاسلام كي ينهل منه في أي عصر من العصور .

وحيث يقرأ الباحث في كتاب الله ، أو يطلع على الاحاديث النبوية الشريفة ، وسيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام وحياته مع صحابته واتباعه ، وفي بيته ومسجده وفي جهاده وسلمه ، وفي حله وترحاله ، وفي علاقاته المتنوعة حينما يلقي الانسان نظرة شاملة على عالم الرسول الرحب

الفسيح يجد للطب وللصحة مكانة كبيرة ، ليس هذا فحسب ، بل ان مفهوم الطب النبوي مفهوم شامل يبعث على الدهشة ، ويدعو إلى الاعجاب ، .. لاننا حينما نقيس الطب النبوي بالمقاييس العلمية الحديثة في أسسه العامة ، نجد أنفسنا أمام اعجاز قاهر لكـــل نوازع الشك والتّردد . فالطب النبوي يتمثل كل ما له علاقة بصحة الانسان كالتغذية والنظافة والانحرافات العضوية والنفسية وبعض طرق العلاج ، وكافة النواحي البيئية والاجتماعية والشخصية وغيرها مما يتعلق بالصحة العامة .

ونحن اذا نظرنا في التعريف الحديث الذي وضعته «منظمة الصحة العالمية » عن مفهوم الصحة ، لوجدنا ان ذلك التعريف يؤكد ان الانسان الصحيح ليس هو السليم بدنيا فحسب لأن صحة البدن جانب واحد من جوانب الصحة ، ومن ثم لكي تكون الصحة في صورتّها المثالية المكتملة لا بد وأن تشتمل على سلامة النواحي البدنية والنفسية والعقلية والاجتماعية في هذا الاطار العام يتحدد مفهوم الصحة لدى تلك المنظمة الكبرى التّي يديرها ويشرف عليها نجبة من كبار أطباء العالم، وأمهر الباحثين والخبراء في مجال الصحة ..

واذا عدنا إلى الطب النبوي لنتدارس من خلاله التعريف الصحيح للصحة لوجدناه يتفق وذلك المفهوم الحديث لدى منظمة الصحة العالمية ان لم يفقه برغم مرور القرون الطويلة ،

وبرغم المنجزات الحديثة في مجال البحوث ، وتطور الدراسة ووسائلها وامكانياتها المذهلة فكيف يمكننا أن نفسر هذه الظاهرة المبهرة ؟ ؟ كيف استطاع النبي ﷺ أن يرسي تلك الأسس التي لم نستطع الوصول إلى بعضها الا بعد أن استعملنا المجاهر (الميكروسكوبات) والمختبرات ومزارع الميكروبات وأجهزة الكمبيوتر ، والتجارب المضنية على الحيوان وعلى الانسان أحياناً ، كيف نستطيع أن نفسر ذلك الا اذا آمنا ان المصطفى « ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحي » .

ان الرسول ﷺ يضع قاعدة صلبة لينطلق منها البحث العلمي والجهد الدائب ، من أجل الوصول إلى أسباب الداء ، والعثور على الدواء ، بحيث لا يتقاعس الناس عن أداء الواجب ازاء عدوهم اللدود : المرض ، ومن هنا كان أمره ﷺ بالتداوي ، بل كان يبعث ببعض المرضى إلى طبيب العرب في ذلك الزمان « الحرث بن كلدة » كما كان يقترح عليه بعض الأدوية ، وحينما يأمر النبي بالتداوي ، فمعنى ذلك أنه يرفض التواكل أو الاهمال ويدعو الناس للأخذ بالأسباب ، وبذل الجهد في محاربة الداء ، حتى يقوى الانسان بدناً وروحاً وقلباً وعقلاً ، فيستطيع أن يؤدي رسالته بين مجتمعه ، ويحمل الأمانة التي كفله الله بها ، ويسعد في حياته كما تسعد أسرته .

« روى مسلم في صحيحه من حديث ابن الزبير ، عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال :

« لكل داء دواء ، فاذا أصيب دواء الداء ، برأ باذن الله عز وجل » .

وفي الصحيحين ، عن عطاء عن أبي هريرة : قال رسول الله ﷺ :

« ما أنزل الله من داء الا أنزل له شفاء » .

وفي مسند الامام أحمد ، من حديث زياد بن علاقة عن أسامة بن شريك ، قال : « كنت عند النبي ﷺ ، وجاءت الأعراب فقالوا : يا رسول الله ، أنتداوى فقال : نعم يا عباد الله . تداووا ، فان الله عز وجل لم يضع داء ، الا وضع له شفاء غير داء واحد،قالوا : ما هو ؟ قال الهرم»: في لفظ» « ان الله لم ينزل داء الا أنزل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله » .

وفي المسند والسنن عن أبي خزامة ، قال ، قلت يا رسول الله أرأيت رقي نسترقيها ، ودواء نتداوى به ، فقال وتقاة نتقيها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ ؟ فقال هي من قدر الله وهكذا وضع الرسول ﷺ قواعد هامة كان لها أعمق الأثر في تطور العلوم الطبية سواء في مجال الأمراض والعقاقير وأساليب العلاج المختلفة ، ومن ثم استطاع الأطباء المسلمون في القرون التالية أن يستنيروا بهديه ، ويجدوا في البحث والتجارب والتأمل والمشاهدة والوصول إلى كثير من الحقائق العلمية وتطبيقها في مجال العلاج والتشخيص ، منها ما يتعلق

بالدواء ، ومنها ما يتعلق بالغذاء ، ومنها ما يتعلق بأسلوب حياة المريض من حيث العمل أو الراحة ، والنوم أو اليقظة ومنها ما يتعلق بروحه المعنوية ، أوحالته النفسية ، فالأحاديث التي ذكرناها اقرت عدة حقائق : —

أولها : الأمر بالتداوي ، وهو أمر من المصطفى ﷺ ، يلتزم به المسلم لأنه يرتبط بما يتعلمه ويؤمن به من آداب اسلامية أو سلوك صحيح يرضى عنه ، وهذا الأمر بالتداوي يتضمن رفضاً لأساليب التواكل والتراخي والاهمال .

ثانيها : ان اقرار الرسول بأن لكل داء دواء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله ، .. يفتح باب الأمل دائماً ، أمام الباحثين والعلماء كي يطوروا تجاربهم وأبحاثهم حتى يصلوا إلى الدواء المنشود ، كما انه يفتح باب الرجاء أيضاً امام المرضى حيث يستقر في قلوبهم يقين بأن الدواء موجود ، وان الله سبحانه قادر أن ييسر لهم أسلوب العثور عليه.

ثالثها : ان الاهتمام بالعلاج أو التداوي واجب ديني من ناحية أخرى قد تخفي على الكثيرين فقد يدهش البعض حينما يعرف أن العلاج جزء من الوقاية ، لأن علاج أي مريض قد تجنب غيره الاصابة بالمرض اذا كان المرض معدياً ، لأنه اذا بقي

على حاله دون علاج تفشى الداء وكثر المرض ، وحاق بالأسرة أو المخالطين ، أوالمجتمع عموما ضرر بليغ ومن ثم فان الأمر بالتداوي ليس مجرد حفاظ على فرد بعينه ، ولكنه وقاية للمجتمع ككل كما يمكننا أن نضيف إلى ذلك أيضاً ان ترك الداء دون علاج قد يؤدي إلى مزيد من المضاعفات أو العاهات ، فيصبح المريض حتى بعد أن يشفى من مرضه ، عاجزا عن أداء دوره في الحياة ، بضعف في ابصاره أو شلل في طرف من أطرافه، أو تلف في جهاز من أجهزة جسمه.

ولقد كان الرسول ﷺ يقوم بمعالجة بعض المرضى بنفسه أو يصف لهم الدواء ، كما أنه كثيرا ما كان يلجأ لعلاج بعض الادواء التي تصيبه بالدواء أو الغذاء أو وسائل العلاج الاخرى وقيامه على هذا النحو ، واهتمامه بالأمر ، مما يؤكد لأصحابه وللمسلمين إن ذلك السلوك في مجال الصحة ، يعتبر جزءا من السلوك العام بالنسبة لكل فرد في المجتمع يثاب عليه ، وينال رضى الله .

مثال ذلك ما جاء في الصحيحين ، من حديث المتوكل عن أبي سعيد الخدري « أن رجلا أتى النبي ﷺ فقال : ان أخي يشتكي بطنه : وفي رواية استطلق بطنه فقال : اسقه عسلا ، فذهب ثم رجع ، فقال قد سقيته ، فلم يغن عنه

شيئاً ، وفي لفظ : فلم يزده الا استطلاقاً (اسهالا) مرتين أو ثلاثة ، كل ذلك يقول له اسقه عسلا فقال له في الثالثة أو الرابعة : « صدق الله وكذب بطن أخيك » .

ويرى ابن قيم الجوزية أن هذا الذي وصف له النبي العسل كان استطلاق بطنه ، ويضيف رحمه الله [1] : وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع ، وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء ، ان قصر عنه لم يزله بالكلية وان جاوزه أوهن القوى، فأحدث ضرر آخر ، فلما أمره ان يسقيه العسل ، سقاه مقدارا لا يفي بمقاومة الداء ولا يبلغ الغرض ، فلما أخبره ، علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة ، فلما تكرر ترداده الى النبي ، أكد عليه المعاودة ليصل إلى المقدار المقاوم للداء ، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء بريء باذن الله واعتبار الأدوية وكيفياتها بمقدار قوة المرض والمريض ، ومن أكبر قواعد الطب .. وفي قوله « صدق الله ، وكـــذب بطن أخيك » اشارة إلى تحقيق نفع هذا الدواء ، وان بقاء .. الداء ، ليس لقصور الدواء في نفسه « ولكن لسوء حال المريض واستحكام الداء ، مما يحتاج لزيادة في كمية العلاج وفي الجرعات اللازمة.

هذا المثل من الأمثلة العديدة التي كان الرسول يقوم فيها مقام الطبيب ، فيوصي بالعلاج عن يقين وثقة ، مستنداً

---

(١) ص ٢٧ – الطب النبوي .

إلى وحي الله ، وإلى ماضي التجارب التي عايشها الناس في عصره وقبـــل عصره فالعسل ، كما ورد في القرآن الكريم — (فيه شفاء للناس) واساطين الطب في ذلك الزمان كانوا ينظرون اليــه كدواء وغذاء وفي عصرنا اليوم صدرت مؤلفات عديدة عن العسل تناولته من شتى الوجوه ، فهناك في روسيا أجريت دراسات عن استعمال عسل النحل في علاج ، حروق العين ، وقد كانت تلك الحروق تسبب في فقدان نسبة كبيرة من الابصار ، وقد أثبتت التجارب الروسية نجاح المحاولة بحيث ... ارتفعت نسبة التحسن ، وقلت المخاطر ، كما أجريت في أوربا دراسات عن امكانية احتواء العسل على مواد قاتلة للميكروبات فوضعت فيه أنواع مختلفة من البكتريا وغيرها مثل ميكروبات التيفود والتيفوس ومسببات الدوسنتريا والمكور السبحي والعنقودي وغيرها ، وتبين أن تلك الميكروبات قد قضي عايهـــا على فترات متفاوتة .. ثم ماذا يفعل الطب الحديث اليوم امام النزلات المعوية أو ما نسميه نوبات الاسهال ذات الأسباب المختلفة أن أول شيء يعطي للمريض هو المحاليل التي تقاوم الجفاف الناجم عن الاسهال ، لان خطورة المرض تكمن في فقدان سوائل الجسم وبعض الأملاح كالصوديوم والبوتاسيوم مما يؤدي إلى فشل الدورة الدموية ، وتعثر وظائف الكلي أو توقفها . وتخثر الدم والوفاة ، مثال ذلك ما يحدث ، في حالة النزلات المعوية عند الأطفال ، .. وفي حالة الاصابة بمرض

الكوليرا ... والأطباء يرون أن العلاج الحاسم .. بل العلاج الوحيد في معظم الأحيان هو المحاليل أو السوائل التي تعوض الجسم عما فقده ، .. وتحميه من الجفاف ، والعسل الممزوج بالماء ، أو العسل الذي يتبعه شرب الماء ، يعتبر خطوة هامة في مجال تحسن حال المريض بل انقاذه ، لأن العسل يحتوي على ماء ونوع سهل الهضم من السكر الممتاز ، بالاضافة إلى بعض المواد الاخرى الضرورية ... ثم امكانية وجود مواد قاتلة للميكروبات في العسل ، وبالطبع نحن نعرف قيمة العسل من الناحية الغذائية ، وسرعة استفادة الجسم من سكره وخاصة في تلك الظروف العاجلة الملحة ... ظروف الجفاف القاتل الذي يهدم بنيان الجسم في وقت قصير ! !

ولقد أشار ابن قيم الجوزية في معرض تعليقه على هذا الحديث إلى أمور جديرة بالاعتبار والنظر مما يؤكد متانة الأسس التي قام عليها الطب النبوي وخلودها ، وهي أمور هامة اليوم في مجال العقاقير الطبية منها .

(أ) كمية الدواء وهو ما نسميه (الجرعة) .

(ب) مدة العلاج .

(ج) عدد الجرعات اليومية .

ونلاحظ أن الرسول ﷺ كان في بعض الأحيان يوصي

بتعاطي العلاج لثلاثة أيام مثلا ، مرة كل يوم ، وقد يوصي باستعمال الدواء لسبع ليال ، وقد كان ﷺ يلجأ لبعض أساليب ما نسميه بالعلاج الطبيعي في عصرنا ، فيعصب رأسه في بعض حالات وهو ما يفعله بعض الأطباء في عصرنا اذ .. يضغطون على بعض الشرايين الموصلة للمخ فيقل فيه الاحتقان لقلة تدفق الدم ، .. وتخف حدة الصداع ، كما أوصى صلوات الله وسلامه عليه باستعمال ما نسميه « بالكمادات الباردة » في أيامنا هذه عند ارتفاع درجة الحرارة ، حينما قال « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » . وما زالت مستشفياتنا وعياداتنا تستعمل تلك الأساليب، وخاصة عندما تفشل العقاقير الطبية ، أو نتوجس خيفة من استعمالها في بعض الحالات نظراً لما قد تؤدد اليه من مخاطر ومضاعفات جانبية .

والأطباء المحدثون يرى عدد كبير منهم أن فريضة الصوم من الناحية الصحية تلعب دوراً بارزاً في مجال الوقاية والعلاج ، وسوف نتحدث عن ذلك فيما بعد ، ولكن الذي يهمنا الآن هو التأكيد على أهمية الصوم في علاج كثير من الاضطرابات المعوية وعسر الهضم وأمراض القولون (المصران الغليظ) وعلاج مرض السكر عند البدناء أو في حالة مراحله الأولى ومساعدته على اخفاض ضغط الدم المرتفع ، والسمنة وما يلحق بها من مضاعفات .

وهكذا تتدخل الفرائض الاسلامية والآداب الدينية مع الأساليب السليمة في السلوك الصحي ، حماية لصحة الناس وعلاجاً لأمراضهم ، ومن هنا كانت نظرة الاسلام إلى الانسان جسدا ونفساً وعقلاً ولبنة في بناء المجتمع ، فالذي يعالج بدنه يكتسب المنفعة الدنيوية كما يكتسب الأجر والثواب في الآخرة .

والذي يرتبط بالقيم الاسلامية المتعلقة بالنظافة والوقاية من مختلف الأمراض يدخل مع الطائعين والمنفذين لأوامر الله ورسوله ، انها داخلة ضمن طاعة الله ، والآداب التي نادى بها نبيه ﷺ ، فانها تكسب أهمية تقرّب من القداسة ما دام المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير . ولقد لاحظت من خلال (تجاربي الشخصية وانا ادبر شئون الثقافة الصحية) .. التوعية الصحية أن ربط شئون الآداب الصحية بالقيم الاسلامية ، كان له أعمق الأثر في اقتناع الناس بالتعود على السلوك الصحي والعادات السليمة مما انعكس أثره على الفرد والمجتمع بالفوائد الكثيرة ، بل اشراك خطباء المساجد والوعاظ في حملات التربية الصحية أتى بأكبر المنافع في هذا المجال ...

واذا كان المصطفى هو قدوتنا في مناحي الحياة المختلفة فان طبه الخالد ، يجب أن يظل منارة لنا في حياة صحية سليمة حماية لنا ولأجيالنا من خطر الأمراض .

أسس الطب الوقائي النبوي

ان الحكمة النبوية العليا تتجلى أروع ما تكون في مجال الطب الوقائي بالذات فقد وضع الرسول ﷺ الخطوط العريضة لما نسميه في عصرنا بالوقاية التي تعتبر خط الدفاع الأول ضد الأمراض المعدية وغير المعدية ، ذلك لحماية الفرد والمجتمع من التعرض لخطر المرض ، وصدق الشاعر العربي القديم حين قال :

توقي الداء خـــير من تصـــد
لأيسره وان قرب الطبيـــب

ولنبحث في البداية عن بعض النصوص الصريحة التي وردت عن رسول الله ﷺ ، فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله « أنه كان في وفد » ثقيف رجل مجذوم . فأرسل الرسول ﷺ اليه : ارجع فقد بايعناك «وروى البخاري في صحيحه تعليقاً من حديث أبي هريرة عن

النبي ﷺ أنه قال : فر من المجذوم كما تفر من الأسد » ، وفي الصحيحين ، في حديث أبي هريرة « لا يوردن ممرض على مصح » .

وفي الصحيحين : عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أن النبي ﷺ — في مجال الحديث عن الطاعون قال :

(فاذا سمعتم به بأرض ، فلا تدخلوا عليه ، واذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها فرارا منه) .

ولقد ذكرت في كتب التراث واقعة زيارة الخليفة عمر بن الخطاب « لعمواس » احدى مدن الشام وكان قد تفشى فيها الطاعون ، وهو مرض معد ، وتوقف عمر ولم يدخل إلى المدينة الموبوءة ، وخاصة بعد أن روى له حديث رسول الله السابق .. ولقد قال أبو عبيدة بن الجراح لعمر يا أمير المؤمنين : أفرارا من قدر الله تعالى ؟ فقال له عمر : لو قالها غيرك يا أبا عبيدة ، نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى ، أرأيت لو كان لك ابل فهبطت واديا له عدوتان احداهما خصبة والأخرى جدبة ، ألست ان رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى وان رعيتها الجدبة رعيتها بقدر الله .

ثم جاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيب فقال : ان عندي في هذا علماً : سمعت رسول الله ﷺ يقول : اذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه واذا .. سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » .

وهذا التصرف يعني ما نسميه في عصرنا بالحجر الصحي « الكارنتينا » والمقصود بالحجر الصحي هو عزل الأماكن والناس عند تفشي الأمراض المعدية المعينة منها الطاعـــون والكوليرا والجدري والتيفوس وغيرها ، ولا شك أن منع دخول الناس إلى الأماكن الموبوءة وكذلك منع الخروج منها يساعد على حصر الوباء والتغلب عليه وعدم انتشار عدواه بين الناس ، واذا كانت اللقاحات ، والطعوم قد اكتشفت في عصرنا هذا الا أن الحجر الصحي ما زال هو الأساس أو القاعدة ، وخاصة بالنسبة لبعض الأمراض التي لم يكتشف لها طعوماً أو لقاحات حتى الان وأيضاً بالنسبة ، للأمراض المعدية التي لا تساعد التحصينات اللازمة على الوقاية منها فتطعيم الكوليرا مثلا لا يكاد يقي الا حوالي ٣٥٪ من مجموع المطعمين في رأي أغلب الأطباء والباحثين ، ومن ثم فان العزل أو الحجر الصحي يعتبر الوسيلة الفعالة لمنع انتشار المرض مضافاً إلى ذلك ما يقوم به الأطباء من اسعافات وعلاجات ثانوية أخرى وفي مسند البزار عن النبي ﷺ أنه قال : « ان الله طيب يحب الطيب نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، .. فنظفوا أفناءكم وساحاتكم ولا تشبهوا باليهود يجمعون الاكباء (الزبالة) في دورهم « كما صح عنه » ان لله حقاً على كل مسلم ان ، يغتسل في كل سبعة أيام ، وان كان له طيب أن يمس منه »ونحن لأ نعلم أن القمامة وتراكمها في البيوت يكون سبباً في

تكاثر الحشرات كالذباب والصراصير والبعوض ، كما يساعد على تكاثر الميكروبات ونقل الأمراض الجرثومية والفطريات والطفيلية إلى الأصحاء ، وقد نهى ﷺ عن أن تكون المراحيض داخل البيوت ، وقد روى عنه أيضاً أنه أوصى بعدم قضاء الحاجة في الماء أو في الظل أو على قارعة الطريق وهذا ما نسميه في عصرنا بصحة البيئة التي تعتمد أساساً على نظافة البيت الذي نقضي فيه معظم أوقاتنا وخاصة أوقات الراحة والنوم وتناول الطعام ، وقد وضع العلماء مواصفات عدة للسكن الصحي ، وهي في جملتها لا تخرج عن الاطار الذي رسمته السنة النبوية الشريفة ، كل ذلك من أجل الوقاية من الأمراض والعلل المعدية .

وقد حرص الاسلام على نظافة الفرد — والنظافة من الايمان — فهي العامل الأساسي لحماية صحة الانسان من الأخطار لهذا نرى أن الوضوء يؤدي دوراً بارزاً في هذا المضمار وفي دراسة لمنظمة الصحة العالمية في بنجلاديش ثبت أن مجرد استعمال الماء النظيف في غسل اليدين مثلا يزيل حوالي ٩٠٪ من الميكروبات كما أن الاسلام أوجب على المسلمين الغسل في مناسبات مختلفة مثل الجنابة والحيض والنفاس كما استسن الاستحمام في أيام الجمعة والأعياد ، وغيرها ، وأوصت الآداب الاسلامية بنظافة الثياب (وثيابك فطهر) كما أوصى الرسول ﷺ بنظافة الشعر وترجيله ودهانه بالمواد الدهنية أو الزيتية وكان ﷺ يفعل ذلك قدوة لأصحابه كما

أوصى بتقليم الأظافر حيث أن الشيطان يختبيء في الأظافر الطويلة ، وفي الدراسات التي أجراها الباحثون اتضح أن الترسبات التي تكمن تحت الأظافر تحتوي على عدد من الميكروبات الضارة المختلفة التي يمكن أن تنتقل إلى الطعام أثناء الأكل أو إلى البشرة أثناء حكها ، بل ان طفيل « الاكزيورس » ممكن أن تنتقل عدواه من انسان لانسان عن طريق اليد ، بل ان الانسان الذي لا يغسل يده بعد الذهاب إلى المرحاض قد ينتقل العدوى من برازه إلى فمه وفي هذا يقول المصطفى ﷺ : بورك في طعام غسل قبله وغسل بعده ، كما أوصى أصحابه أن يغسلوا أيديهم بعد القيام من النوم قائلا : فأن احدكم لا يدري أين باتت يده ».

وفي الصحيحين عن سعد بن عجره قال : كان بي أذى من رأسي فحملت إلى رسول الله ﷺ والقمل يتناثر على وجهي فقال : ما كنت أرى الجهد قد بلغ بك ما أرى « وفي رواية أمره أن يحلق رأسه » .

ولذلك حلق النبي رؤوس بني جعفر ، ومن المعروف أن يوضع الدواء بعد ذلك على الرأس، وما زال الأطباء في أيامنا هذه عند علاج القمل أو القراع يحثون على حلق الرأس كبداية للعلاج فلا تجد الحشرات وبيضها ما تلتصق به أو تختبيء فيه .

وقد جاء في حديث للرسول ﷺ : « اذا شرب أحدكم

فلا يتنفس في القدح ولكن ليبن – أي يبعد الاناء عن فيه ،

وقد روى مسلم في صحيحه عن حديث جابر بن عبد الله قال :

« سمعت رسول الله ﷺ يقول : غطوا الاناء وأوكوا السقاء » روى .. البخاري في حديثه عن ابن عباس « ان رسول الله ﷺ نهى عن الشرب من في السقاء .

ونستطيع ان نقول في ايجاز ان نظافة الفرد أو نظافة الشخصية وكذلك نظافة البيئة أو ما يسميه الأطباء بصحة البيئة من الأمور التي اهتم بها الرسول ﷺ وجعلها أساساً لوقاية البدن من العدوى والانحرافات التي تسببها العلل المختلفة .

واذا انتقلنا إلى مجال صحة الانسان والفم وحاولنا ان نقارن بين ما نرى عليه السلف الصالح من آداب صحية عريقة وبين ما يوصي به أطباء الأسنان اليوم من نصائح لوجدنا أن تلك القرون العديدة التي بيننا وبين عصر النبوة لم تضف كثيراً في هذا المجال ، والمعروف أن الفم هـو المدخل للذي يأتي اليه الطعام والشراب وأن صحة الانسان تتأثر سلباً وايجاباً بحالة الأسنان ، ومما هو معروف علمياً أن الفم لا يكاد يخلو من الميكروبات وأن بقايا الطعام وخاصة النشويات تلعب دوراً كبيراً في الاصابة بنخر (التسويس) الاسنان ، وكل ما يستطيع أن يوصي به الأطباء ازاء هذه

المشكلة هو نظافة الفم واستعمال الفرشاة التي هي بديل للسواك ، وقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » .

وفي صحيح البخاري تعليقاً عنه ﷺ «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب » وفي صحيح مسلم أنه ﷺ كان اذا دخل بيته بدأ بالسواك ، وصح عنه أنه استاك عند موته .

ان عمل الاسنان هام جداً بالنسبة لمضغ الطعام واتاحة الفرصة لبعض الانزيمات الموجودة في الفم كي تختلط بالكتلة الغذائية أثناء فترة المضغ لتساهم في عملية الهضم ، والا تلكأت هذه العملية ووجدت المعدة صعوبة في أداء عملها مما ينتج عنه عسر الهضم وما يصحبه من انتفاخات وآلام واضطرابات مختلفة كما أنه اصابة الاسنان قد يكون لها علاقة ببعض الأمراض التي تصيب أعضاء كثيرة في جسم الانسان كالكلي والعينين والمفاصل وغيرها نظرا لأن البؤر الصديدية في الأسنان .. أو اللثة تكون مكمنا لكثير من الميكروبات والسموم وهذه تستطيع أن تنتقل عن طريق الدم إلى مختلف أعضاء الجسم ، فلا عجب اذا قرأنا في السنن عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه أنه قال « رأيت رسول الله ﷺ ما لا أحصي يستاك وهو صائم » وقال البخاري : قال ابن عمر : « يستاك أول النهار وآخره » .

ومما لا شك فيه أن تلك الاداب الصحية التي رويت

عن رسول الله ﷺ تضع الخطوط العريضة والأسس القويمة لحياة ينعم فيها المرء بالعافية والسعادة فان الصحة من أجل نعم الله علينا وقد حذر الرسول ﷺ من التخمة فقد أثبتت الدراسات المعاصرة علاقة التخمة وما يتبعها من بدانة بكثير من الأمراض المختلفة مثال ذلك صلة البدانة بمرض السكر وعلاقتها : بأمراض القلب وتصلب الشرايين وأمراض مفاصل الأطراف السفلى وغيرها ، وقد جاء في المسند وغيره عنه ﷺ أنه قال : « ما ملأ آدمي وعاء شرا من بطنه ، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فان كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه » .

وتعليقاً على هذا يقول ابن قيم الجوزية : « ومراتب الغذاء ثلاثة أحدها مرتبة الحاجة والثانية مرتبة الكفاية والثالثة مرتبة الفضلة .... فان البطن اذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب فاذا أورد عليه الشراب ضاق عن النفس وعرض له الكرب والتعب وصار محمله بمنزلة حامل الحمل الثقيل هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب وكسل الجوارح عن الطاعات وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشبع فامتلاء .. البطن من الطعام للقلب والبدن .

وفي هذا أيضاً يقول الامام الشافعي رضي الله عنه :
« الشبع يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة » .

وذكر أبو نعيم عنه ﷺ أنه كان ينهي عن النوم على الأكل ولا ينام عقبه ، ولم يكن من هديه ﷺ أن يشرب على طعامه [1] .

ومن المعروف أن كبار السن وخاصة مرضى القلب يتعرضون للنوبات التي قد تقضي عليهم عقب أكلة كبيرة يعقبها النوم مباشرة ، ولهذا يوصي الأطباء بالبقاء متيقظين لمدة ساعة على الأقل بعد الأكل وقايةمن تلك النوبات نظراً لان التخمة ترهق القلب وخاصة القلب المصاب بقصور في في الدورة الدموية .

ان الرسول ﷺ وضح العافية وهي تمام الصحة ، من أجل نعم الله على العبد بعد اليقين ، ففي مسند الامام أحمد عن أبي بكر الصديق قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« سلوا الله اليقين والمعافاة ، فما أوتي أحد — بعد اليقين — خير من العافية » . وفي الترمذي أيضاً من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نصح لك جسمك ، ونروك من الماء البارد ؟ ؟ » ومن ههنا قال من قال : من السلف في قوله تعالى : « ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم » — — قال عن الصحة .

---

(١) الطب النبوي ص / ١٣ .

نحن اذن أمام صورة متكاملة من صور الطب النبوي في مجال الاعتزاز بنعمة الصحة ، ثم وقاية الجسم من الأمراض ، هذه الصورة الباهرة المعجزة تشمل عديداً من الواجبات التي تحمي الانسان من العلل والانحرافات نستطيع أن نوجزها في النقاط التالية :

أولا : الصحة نعمة من أجل نعم الله .

ثانيا : الصحة أمانة في عنق كل فرد ، فليحفظ كل أمانته ويحمها من التلف والضرر .

ثالثا : ضرورة حماية المجتمع من انتشار الأوبئة أو الأمراض الفتاكة ، وذلك بتطبيق قوانين العزل أو الحجر الصحي .

رابعاً : تقف النظافة في مقدمة الحصون التي تحمي الجسم من تقبل العدوى وغيرها من الأمور التي تنهك الجسد .

خامساً : تجنب التخمة وما تجلبه من مضاعفات .

سادساً : نظافة المأكل والملبس والمسكن .

سابعاً : مكافحة الحشرات والميكروبات بالأساليب المناسبة

ثامناً : ضرورة التداوي والعلاج لكبح جماح المرض ، وتجنب المضاعفات والعاهات ، ووقف تفشي المرض بين الأصحاء .

تاسعاً : وقاية الأسنان التي تعتبر منفذا لعديد من الانحرافات والعلل التي تؤثر على أجهزة الجسم المختلفة وفي مقدمتها الجهاز المضمي والجهاز البولي والجهاز البصري والمفاصل .

عاشراً : اعتبار المحافظة على الصحة ، والوقاية من الأمراض ، طاعة لله ورسوله ، .. يؤجر عليها المرء في أخرته ويسعد بها في دنياه .

وبعد ،

هل استطاع الطب الحديث في خطوطه العريضة، وفي أسسه العامة ، أن يقوم ويقدم تصورا أعمق وأشمل من هذا التصور في مجال الوقاية تلك التي أصبحت بحق ــ وباعتراف أساطين الأطباء هي المعول الأكبر في خلق جيل من الأطباء؟؟ وهل يستطيع باحث أن يرينا المبالغة فيما قررنا من تلك الحقائق الدامغة ، التي كانت حقيقة واقعة في حياة الرسول وصحبه ، وفي حياة التابعين الذين نهجوا على منواله، وساروا على المحجة البيضاء التي لا يحيد عنها الا هالك ؟ ؟

الطبّ النّبوي النّفسيّ

يحتل الطب النفسي مكانة كبيرة في عالم اليوم ، وعند تصنيف المرضى إلى .. مصابين بأمراض عضوية ومصابين بأمراض نفسية ، نجد أن القسم الأخير يشمل أعداداً هائلة في كل أنحاء العالم ، لهذا تخصص الكثيرون من الأطباء في الأمراض النفسية ، وأنشئت لذلك المصحات والعيادات ، وتنوعت أساليب العلاج بحيث أصبحت متداخلة متشابكة ، تضم العقاقير الطبية ، والصدمات الكهربائية والتحليل النفسي ، والتنويم المغنطيسي والايحاء وادخال التعديلات على أساليب الحياة أو معالجة بعض الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي تتعلق بالاضطراب النفسي الذي يؤثر في طبيعة المريض وتصرفاته ..

وتقف العقاقير المهدئة أو المطمئنة أو المنومة في مقدمة أنواع العلاج المختلفة ، ونظرة واحدة إلى الاحصاءات

العالمية ، تؤكد لنا ضخامة الكميات التي توزع على نطاق واسع ، وخاصة في أوربا وأمريكا والمجتمعات المتحضرة أو الصناعية ، تلك المجتمعات التي تنتشر فيها الاضطرابات النفسية وتتعدد المشاكل ، وتندلع الصراعات المادية والمذهبية ، وتغلب عليها صفات التنافس والجشع والتسابق على نيل المتع ، والافلات من قيود القيم الروحية والأخلاق الحميدة .. ولقد اتضح في السنوات الأخيرة ، ان تلك العقاقير النفسية لم تعد ذلك السحر الذي يقلب الشقاء إلى نعيم ، والتعاسة إلى سعادة ، والمرض إلى صحة ، هذه العقاقير ثبت أنها قد تؤدي إلى الادمان ، وتؤثر في الجهاز العصبي اذا طال استعمالها — تأثيراً دائماً ، فتضعف المواهب والقدرات ، وتبعث الاضطراب والخلل في النسق الالهي البديع الذي خلق على هداه الانسان ، كما انها تؤثر على الكلي والكبد والجهاز الهضمي وغيرها ، فهي مهما تغيرت اسماؤها تمت من قريب أو بعيد للمخدرات .

لا أريد أن أستطرد في علاج الأمراض النفسية ، أو أتصدى تفصيلياً للقيمة الحقيقية للعقاقير المهدئة أو المطمئنة ، لكن الذي أود أن أشير اليه هو أن هذه العقاقير ليست كل شيء ، بل مجرد عامل مساعد — كما يقول الأطباء النفسيون — لتحريك عملية العلاج — ولا يمكن الاعتماد عليها ولا الاستمرار في تعاطيها الا لأجل محدود ، حتى تمر الأزمنة ثم يأتي بعد ذلك العلاج الأساسي ، وهو البحث عن « السبب »

الذي حرك كوامن من النفس ، وأثار فيها الاضطراب ، ومكن فيها للقلق والحيرة والتوتر والاكتئادب والعزلة والخوف .. واليأس والملل والقنوط ، بل الرغبة أحياناً في التخلص من الحياة .. فهل استطاعت العقاقير أو الكيماويات أن تحل المشكلة .

ولقد سمى علم الأمراض النفسية في تراثنا الاسلامي القديم « بطب القلوب » ، واهتم به الرسول ﷺ كما كتب عنه علماء المسلمين المتخصصون في الطب وغير المتخصصين فترى مثلا عالماً من أبرز علمائنا وهو ابن قيم الجوزية يسرد عشرين صفة للطبيب ، ومن ضمن هذه الصفات (الصفة السابعة عشرة) يقول في مصنفه « الطب النبوي » ص/ ١١٣ : « أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها ، وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان فان انفعال .. البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمر مشهود ، والطبيب اذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجهما كان هو الطبيب الكامل ، والذي لا خبرة له بذلك ــ وان كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن ــ نصف طبيب وكل طبيب لا يداوي العليل بتفقد قلبه وصلاحه وتقوية أرواحهوقواه بالصدقة وفعل الخير والاحسان ، والاقبال على الله والدار الأخرة فليس بطبيب بل متطبب قاصر ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والاحسان ، والذكر والدعاء والتضرع والابتهال إلى الله والتوبة ولهذه الأمور تأثير في

دفع العلل ، وحصول الشفاء أعظم من الأدوية الطبيعية ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها ، وعقيدتها في ذلك ونفعه.. » .

ونلاحظ دائماً ــ كما في هذا النص ــ اهتمام أئمة الطب الاسلامي بالربط بين علل القلب والبدن أي العلاقة بين الأمراض النفسية والأمراض العضوية وهي علاقة وطيدة أصبحت بديهية في علوم الطب الحديث ، وهناك فرع من الأمراض يطلقون عليه الآن (Psycho-Somatic disease) الأمراض النفسية العضوية وخاصة بعد أن تأكد ان للحالة النفسية تأثيراً على وظائف الأعضاء الفسيولوجية فالتوتر العصبي والقلق النفسي ، والأرق والخوف وما إلى ذلك ، قد ترفع من ضغط الدم ، أو تساعد على قرحة المعدة أو اضطرابات القولون ، أو الذبحة الصدرية ، وقد ترفع نسبة السكر في الدم ، وهناك أنواع من الشلل النفسي والعمى النفسي ، وفقدان النطق العارض من الأعراض النفسية ، وفي بعض العلل التي يشكو صاحبها من أعراض بدنية ، عندما يفحصها الطبيب لا يكاد يجد أي علاقة تشير إلى خلل عضوي. فالاختبارات الاكلينيكية والتحاليل المعملية والصور الاشعاعية ، كل ذلك يؤكد سلامة العضو ، ولكن المريض يشكو حقيقة وهو لا يكذب في دعواه ، وعندئذ يتبين للطبيب أن العلة أساسها نفسي ...

هذا التصور للرباط الوثيق بين النفس والجسم ، أو بين

الانحرافات البدنية والاضطرابات النفسية ، كان تصوراً واضحاً تماماً في أذهان أساطين الطب .. القديم الاسلامي ، بل انهم ادركوا ان المصاب بعلة بدنية حقيقية تتحسن حالته اذا ما رفعنا روحه المعنوية ، وبشرناه بالشفاء العاجل ، وأدخلنا السرور على نفسه ، وجعلناه ينعم بالتفاؤل والأمل ، وأحطناه بجو من الثقة والايمان .

روى ابن ماجه في سننه ، من حديث أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ « اذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل ، فان ذلك لا يرد شيئاً ، وهو يطيب (أو تطيب نفس المريض) .

ولا شك — كما يقول أسلافنا — ان تفريج نفس المريض وتطييب قلبه وادخال ما يسره عليه له تأثير عجيب في شفاء علته وخفتها فان الأرواح والقوى تقوي بذلك ، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي وقد شاهد الناس كثيراً من المرض تنتعش قواه بعيادة من يحبونه ويعظمونه ورؤيتهم لهم ولطفهم ومكالمتهم اياهم .

ولقد كان رسول الله ﷺ يسأل المريض عن شكواه وكيف يجده ، .. ويسأله عما يشتهيه ، ويضع يده الشريفة على جبهته أو يضعها بين ثدييه ، ويدعو له ، ويصف له ما ينفعه في علته ، ويدخل السرور على قلبه .

وأطباؤنا القدامى في مصنفاتهم ذكروا تفصيلياً اسباب

بعض العلل والأعراض ولم يغفلوا الجانب النفسي كمسبب في بعض الأحيان ، فمثلا الصداع من الأعراض التي ترافق عديداً من الامراض العضوية ... والاضطرابات ..... الوظيفية في جسم الانسان لكن الدراسات النفسية الحديثة ، وقد أثبتت (دكتور تالبوت) أن هناك نسبة عالية من حالات الصداع سببها نفسي ، وبعض الباحثين قد يصل بهذه النسبة إلى أكثر من خمسين بالمائة من حالات الصداع ... وعلى الرغم من ان اسلامنا لم يتعرض لنسبة حالات الصداع ما يحدث بسبب نفسي الا انهم سجلوا في مصنفاتهم ان من ضمن اسباب الصداع : ما يحدث من الأعراض النفسانية كالهموم ، والغموم ، والوساوس ، والأحزان والأفكار .. الرديئة ، هكذا قالوا ..

لكن السؤال الهام هنا : ما هو أساس النظرة الاسلامية للأمراض النفسية وللعلاج النفسي ؟ ؟

لقد استعرضنا فيما سبق بعض الشواهد والنصوص التي توضح لنا ان الطب النبوي كان على بينة تامة بما نسميه المرض النفسي وكما اشتمل على ثبت كبير لوسائل العلاج النفسي وهي وسائل مهما كان قدمها الا أنها ما زالت هي الأساس في العلاج حتى يومنا هذا ..

فالانسان في العلاج في نظر الاسلام يولد على الفطرة ، ثم يعايش مـــا حوله ومن حوله ويتلقف التجـــارب ،

ويختزن الخبرات ولكل انسان امكانياته الحيوية والعقلية والنفسية والاقتصادية فهناك القوي والضعيف ، والجاهل والعالم ، والهادىء والصاخب ، والمنطوي والاجتمـــاعي والمريض والصحيح ، ويمضي الانسان ـ كل حسب طبيعته في رحلة الحياة الطويلة ، ولا يستطيع أن يواصل سيرته بغير زاد ...

وزاد المؤمن هو الايمان بالله والاطمئنان بعدله ، والرضى بقضائه وقدره ، والصبر على بلائه والثقة في عونه ورحمته وحفظه ، والقناعة برزقه ، والعمل من أجل الكسب والطاعة والحرص على أداء ما فرضه الله من عبادات ومعاملات من أجل دك أي اختلال يتناول بناء الفرد الداخلي ، أو يضعف من ايمانه أو يشحنه بالغضب والحقد ، أو يورثه الفزع والقلق ، فسوف يؤدي به حتماً إلى ما نطلق عليه الاضطرابات النفسية أو الأمراض النفسية .

فلا عجب اذا رأينا انتشار الأمراض النفسية بنسبة عالية في بلدان متقدمة ، حققت انتصارات باهرة في الرفاهية والعلم والسياسة والاقتصاد وذلك بسبب الخواء الداخلي وانهيار البناء العقائدي ، وضعف الوازع الديني أو القيم الروحية ، وتحضرني في هذه الحالة قصة ذلك الطبيب النفساني الانجليزي ، الذي قضى عشرين عاماً يعالـــج المرضى في المصحات النفسية وظل يجرب وسائل العلاج المختلفة ،

ويقارن عليها وبينها ، وأخيراً لم يجد وسيلة أقوى وأفعل سوى بث الايمان في نفوس مرضاه وامام هذه التجربة جدد ذلك الطبيب ايمانه ، وعاد إلى الدين ، ونشر تجربته في كتاب تحت عنوان « عدت إلى الدين » وترجم إلى العربية ، ضمن سلسلة كتب للجميع « تحت عنوان شفاء الروح » .

نعود فنقول ان الطب النبوي هو تطبيق للمفهوم الاسلامي الشامل الذي .. ينظر إلى الانسان نظرة واقعية تضع في الاعتبار تكوينه الجسدي والعقلي والنفسي وطبيعة البيئة التي يعيش فيها والنوازع والأهواء التي تتقاذفه ، وقوى الجذب والطرد التي تؤثر فيه داخلياً وخارجياً ، ولذلك جاءت تعاليم الاسلام مراعية لهذه الظروف كلها والسير على منوال تلك التعاليم ، يعطي للنفس صحتها وقوتها ، ويحصن بالخير والحب ارادتها ويحبب اليها الالتزام ، ويهبها قوة تواجه بها عواصف القهر والفشل والغدر والخيانة انه يخلق نفساً سوية.. تستعصي على الانهيار وتتأبى على الدمار ،ومن ثم فان تلك النفس لا تصعقها هزيمة ولا يوئسها مرض ، ولا يذهب باتزانها عامل من عوامل التلف والفساد ... الطارئة .

فاذا كانت عقاقير المهدئات والمطمئنات ذات الجرعات المحدودة والتي توزن عقاقير بالمليجرامات ، بحيث لا تزيد والا قتلت ، ولا تنقص والا لم تفد ، اذا كانت تلك العقاقير لم يعد لها سوى فعالية محدودة موقوتة واذا كانت الصدمات

الكهربائية لا تستعمل الا في حالات معينة وتحت اشتراطات خاصة . فانه لم يبق امامنا سوى العودة إلى الاساليب الواعية ، تدرس الاسباب وتهتم بالظروف المحيطة وتعالج الصدمات العاطفية والاجتماعية ، وذلك عن طريق تقديم العون الممكن سواء أكان مادياً أو معنوياً بأسلوب التفاهم وتحليل المشكلة إلى عناصرها الأولية ومحاولة الوصول إلى جذورها ، ثم بث الثقة واليقين والامل في نفس المريض ، لم تزل هي الأسلوب الأمثل في العلاج النفسي ، بالاضافة إلى ما يحتاجه مثل هؤلاء المرضى من ترفيه وترويح ، وقد ورد عن رسول الله ﷺ ما معناه روحوا عن قلوبكم ساعة بعد ساعة ، ان القلوب اذا كلت عميت . ولعل من الأمور المذهلة ، تلك النزعة البناءة الخلاقة في العلاج النفسي ، اذ يوصي الرسول بعض أصحابه في مجال علاج الهموم بدفعها بالجهاد وهو يقر ذلك النوع الفذ من العلاج الذي يلجأ اليه المعالجون النفسيون اليوم تحت عناوين مختلفة ، فاحياناً يسمونها « التسامي بالغرائز » واحياناً اخرى يطلقون عليها ملء الفراغ او احلال أمر مكان آخر ، وبتعبير أوضح يأخذون بيد المرضى النفسيين إلى حيث يمارسون هواياتهم الفنية المختلفة ، أو يحببون اليهم عملا من الأعمال يتفق وميولهم ، ومن ثم ينصرفون إلى تلك الأعمال البناءة وينسون تدريجياً همومهم وأشجانهم فتصح نفوسهم ، وتتضاءل أحزانهم .

والواقع ان الاسلام قدم حلولا مبسطة وشاملة لقضايا

الزواج والحب والعواطف المختلفة ، وعلاجها من شتى جوانبها ، بحيث لو طبقت على أي مستوى من المستويات لجنبت الكثيرين عديداً من الاضطرابات والانحرافات النفسية ولقد ألمحنا قبل ذلك إلى موضوع ربط الاداب الصحية بالعبادات ونضيف هنا أموراً عدة تتعلق بفريضة الصوم ، وأثرها من الناحية النفسية ، وهذا شيء أفاض فيه العلماء القدامى والمحدثون ، حيث شرحوا لنا اثر الصوم في تربية الارادة القوية والعزيمة وتدريب المرء على الالتزام بالقوانين والشرائع وكسر شهوة النفس والبدن . بحيث تتعود على الحرمان والصبر عند المكاره ، وعدم الرضوخ بطغيان الملذات على اختلاف أنواعها ، ثم ان الصوم يخرج بالصائم عن مألوف عاداته فهو مضطر إلى ان يترك فنجان قهوة الصباح ويبتعد عن التدخين اذا كان مدخنا ، ... ويتجاهل المادة المخدرة اذا كان مدمناً ، ويسكت نداء المعدة اذا كان شرها ، ولذا يصبح الصوم مدرسة نفسية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ... أو بمعنى آخر مصحاً نفسياً تتخلص النفوس عن طريقه من فورانها وعدوانها وجشعها ، وخاصة اذا ما تذكرنا ان الصوم مرتبط بأمور أخرى لها أهميتها التربوية وأثرها النفسي كالصلاة ، وزكاة رمضان وعدم الخوض في أعراض الناس ، وترك المفاسد وشهادة الزور والظلم ... الخ .

الواقع ان المجال الرحب الواسع للطب النبوي انما يكمن

أساساً في دائرة الطب النفسي تلك الدائرة التي تحفل بالكثير والكثير لاننا مهما حصرنا العقاقير والأدوية والممارسات المختلفة التي تتعلق بعلاج البدن وعلله في الطب النبوي ، نقول مهما حاولنا حصر تلك الأشياء لوجدناها — برغم أهميتها — قايلة جداً اذا ما قيست بمئات الألوف من العقاقير المستحدثة أو اذا ما قيست بالانجازات الرائدة للطب النبوي النفسي ..

الطب النبوي النفسي يعتبر — كما قلنا في مجال الطب الوقائي النبوي آية فذة من آيات الله العلي القدير ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالبناء الاسلامي الكبير ..

الغِذاء والطِّبّ النّبوي

في أحاديث الرسول ﷺ ذكر لألوان من الطعام والشراب ، لقيمتها وأهميتها ، ثم نجد أيضاً تخصيص أنواع غذائية بعينها لحالات مرضية هذا بالاضافة إلى اعتبار الغذاء المناسب اول بند من بنود العلاج بالنسبة للمرضى ، فالطعام في ضوء الطب النبوي غذاء ودواء ، وعندما نحاول أن نتحرى ما كان يأكله الرسول سوف نجد نماذج مختلفة تدل على معرفة حقيقية لماهية العناصر الغذائية ، فمثلا نلاحظ أنه ﷺ كان يشرب العسل ممزوجاً بالماء على الريق ، ومن وصاياه ﷺ — في جامع الترمذي يقول : ... واذا سقى لبناً فليقل : اللهم بارك لنا فيه ، وزودنا منه ، فانه ليس شيء يجزي من الطعام والشراب ، الا اللبن .

وكان صلوات الله عليه وسلامه يقبل على اللحم ، ويقول

عنه « هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة [1] » .

وثبت في صحيح مسلم « أنه ﷺ كان ينتبذ له أول الليل ، ويشربه اذا أصبح يومه ذلك ، والليلة التي تجيء والغد والليلة الأخرى ، والغد إلى العصر .

وهذا النبيذ هو ماء يطرح فيه تمر بحلية ، ولم يكن يشربه بعد ثلاث خوفاً من تغيره إلى الاسكار .

وكان يأتدم الخبز والثريد باللحم ، ويحب الفواكه ، ولا يأكل الطبيخ البائت الذي يسخن ولا المتعفن ، كما روى عنه الثقات انه لم يكن يلتزم بنوع واحد من الغذاء ، بل يستفيد من الأصناف المختلفة التي تقبل عليها نفسه ..

ونستطيع من خلال تلك النصوص وغيرها أن نوجز الأسس الغذائية العامة في اطار الطب النبوي على النحو التالي : —

أولا : شمول الغذاء على مختلف العناصر الضرورية كالبروتينات والدهنيات والنشويات والفيتامينات والمعادن ، هذا في وقت لم تكن الدراسات الغذائية التحليلية قد تيسرت لها الأدوات والقوانين الكيميائية غيرها ..

---

(١) رواه ابن ماجه وغيره .

ثانياً : التأكيد على أهمية بعض الأنواع الغذائية خاصة مثل اللبن — واللحوم — والعسل والتمر والفاكهة فاللبن كما نعلم بحق من أكمل المواد الغذائية لاحتوائه على نسبة معقولة من البروتينات والدهنيات والسكريات والمعادن وبعض ... الفيتامينات ولهذا جعله الله الغذاء الوحيد للطفل عند ولادته ، وتعتبر العناصر المكونة للبن اسهل هضماً وامتصاصاً واجل فائدة ، وخاصة بالنسبة لكبار السن والناقهين والأطفال والحوامل والمرضعات ويوصي علماء التغذية والأطباء بضرورة تناوله يومياً بالنسبة للاصحاء ، وقد كثرت الصناعات الغذائية المستخرجة من اللبن ، كما تعددت وسائل حفظه ، وأنواعه وأشكاله .

فلا عجب أن تؤلف فيه الكتب ، ويصبح من الأطعمة التي تلتزم بعض الحكومات بتوفيرها للشعب ، باعتباره ضرورة من الضرورات ولا عجب أيضاً أن نقرأ لرسول الله ﷺ منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان يقول : « فانه ليس شيء يجزى من الطعام والشراب الا اللبن » .

أما اللحوم على اختلاف أنواعها فهي غنية بالبروتينات الممتازة وبالأحماض الأمينية — الأساسية الضرورية بالاضافة إلى نسبة كبيرة من الدهون الحيوانية تتفاوت من نوع لآخر

فتكثر في البط مثلا ، وتقل في الدجاج والأرانب واللحوم الحمراء عموماً ، كما ان اللحوم بها نسبة من المعادن الهامة وبعض الفيتامينات واللحوم كمصدر هام للبروتينات تلعب دوراً رئيسياً في نمو أنسجة الجسم وتعويض التالف منها . وخاصة عقب الأمراض والعنف وسوء التغذية والاصابات والحوادث المختلفة والواقع ان البروتينات النباتية لا يمكن ان ترتفع إلى مستوى البروتينات الحيوانية ، ولذا فان القيمة الغذائية للحوم تتضح بجلاء من خلال الدراسات المختلفة التي جاءت مطابقة لقول الرسول ﷺ « اللحم هو سيد طعام أهل الدنيا والآخرة » .

وبالنسبة **للعسل** فقد أوجزنا في مكان آخر مدى أهميته الغذائية للأصحاء ، .. والنظر اليه كدواء بالنسبة للكثير من الحالات المرضية ، ذلك لما يحتويه من ... عناصر مفيدة ولما يتميز به من سرعة الهضم والامتصاص والوصول إلى الدم والأنسجة في وقت قصير ، وامداده الجسم بطاقة كبيرة تقاس بالسعرات الحرارية ، بالاضافة إلى خاصية قتل بعض الميكروبات التي ذكرها بعض الدارسين .

أما **التمر** أو **البلح** فان احتواء كل منها على نسبة عالية من السكريات يرفع من القيمة الغذائية لهما ، فضلا عن وجود بعض المواد المعدنية والألياف ، القابضة للرحم فتمنع النزيف ، وكذلك وجود مواد تقاوم الشيخوخة ، ثم هناك

الفيتامينات التي تتراوح نسبها كما ونوعاً طبقاً للحالة المتعلقة به ، هل هو طازج أم لا .

أما الفواكه والخضروات الطازجة ، فقد تعرض لها الأطباء القدامى الذين تربوا في أحضان الطب النبوي العريق ، وأثنوا عليها الثناء العاطر ، وهو كلام في جملته لا يقل عما أبرزته الدراسات المعملية أو المختبرية في العقود الأخيرة ، والتي أكدت ضرورة احتواء الطعام اليومي على الفواكه والخضروات الطازجة لما تحتويه من فيتامينات هامة ، ومعادن ضرورية ومواد سكرية ونشوية ، وفيتوجينات وو .. الخ

وكلها تؤثر في حيوية الجسم وقوته ، وحمايته مـــن مختلف الأمراض .. وقد روي عن رسول الله ﷺ ، أنه كان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ، ولا يحتمي عنها ، وهذا أيضاً من أسباب حفظ الصحة كما يقرر الاقدمون — فأن الله جعل في كل بلد من الفاكهة ما ينتفع به اهلها في وقته فيكون تناوله — كما يقول ابن قيم الجوزية — من أسباب صحتهم وعافيتهم ويغني عن كثير من الأدوية . ولا نكاد نجد انساناً أهمل الفاكهة الا وهو من أسقم الناس جسماً ، وأبعدهم من الصحة والقوة ..

وكان الرسول يوصي دائماً بوجبة العشاء ، ولو بكف من التمر ويقول ترك العشاء مهرمة » (١)

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجة .

هذا وقد ورد في القرآن أسماء أطعمة كثيرة كالعسل واللبن والتفاح والرمان والسمك واللحم والبقول والتين والزيتون والرطب والفاكهة عموماً.. وغير ذلك كثير أيضاً ورد ذكر بعضهـا في الأحاديث النبويـة ، بمناسبتها وأحياناً بفائدتها ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على اهتمام الطب النبوي بالأسس الصحية للغذاء ، وأفضل الوسائل لاعداده ، بل ان الرسول ﷺ رسم لنا طريقة الأكل ، وطريقة الجلوس أمام الطعام ، وعدم النوم بعد الأكل مباشرة ، وعدم الشرب أثناء الأكل أو عقبه مباشرة ، لأن كثرة الماء تؤثر – كما نعلم اليوم على عملية الهضم – وتخفيف العصارة الهاضمة ، فيقل تركيزها ، ويضعف مفعولها ، وتتسبب في عسر الهضم ومتاعبه ...

ثالثاً : التأكيد على خصوصية أكل المريض ، بمعنى أن بعض ما يصلح للغذاء بالنسبة للأصحاء ، قد يضر المرضى ، ولهذا حرص الطب النبوي بالنسبة للمريض على أمرين هامين :

أ – عدم اجبار المريض على الطعام ، والاستفادة من الحمية عند الضرورة .

ب – تقديم الطعام السهل الهضم الذي لا يثقـل على معدة المريض ...

فبالنسبة للنقطة الأولى ، قد يصبح حجب الطعام

العادي عن المريض أمراً ضرورياً ، ولهذا نرى الأطباء الآن يستعيضون عن ذلك بإعطاء المحاليل... المختلفـــة عن طريق الوريد أو تحت الجلد أو عن طريق الشرج ، خاصة وان بعض المرضى قـــد يكونون مصابين بالقيء الشديد فلا يكاد يستقر شيء في معداتهم وقد يلجأ الاطباء لعمليات نقل الدم كانقاذ لحياة المريض ، وسواء أكانت هناك سوائل تعويضية مطلوبة أم لا ، فان منع الطعام عن المريض في بعض الحالات يعتبر أمراً ضرورياً ، وقد روى الترمذي في جامعه وكذلك ابن ماجة ان الرسول ﷺ قال : « لا تكرهوا مرضاكم على الطعام فان الله عز وجل يطعمهم ويسقيهم » . ولا يكون الاكراه في الطعام الا في حالات معينة كمرضى التخلف العقلي أو المضطربين عقلياً ولا ينكر احد انه في بعض الحالات المرضية كثيراً ما يصاب الانسان بفقدان للشهية ولا تعود شهيته المفقودة الا اذا تماثل للشفاء » .

وتتصل هذه بالنقطة الثانية ألا وهي تقديم الطعام السهـــل الهضم للمريض ، لأنـــه لا يثقل على معدته ، ويلاقي القبول في معظم الأحيان ، مثال ذلك بعض الأنواع من الحساء (الشوربة) وعصير

الفواكه والمحاليل السكرية واللبن وغيره من الأغذية الخفيفة التي وردت في أحاديث الرسول وفي تصانيف علماء الطب النبوي في العصور التالية ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ اذا قيل ان فلانا وجع لا يطعم الطعام ، قال عليكم بالتلبينة فاحسوه اياها ويقول : والذي نفسي بيده انها تغسل بطن أحدكم كما تغسل احداكن وجهها من الوسخ » .

« والتلبين » هو الحساء الرقيق المتخذ من دقيق الشعير بنخالته وهناك أيضاً العنب وقد ذكره الله سبحانه وتعالى في ستة مواضع من كتابه ، ويذكر عن رسول الله ﷺ أنه كان يحب العنب والبطيخ ، ومن المعروف علمياً أن سكر .. العنب سهل الهضم والامتصاص والاحتراق ، وهو من الأغذية التي يوصي بها الأطباء في حالات الحميات المختلفة ، والتهاب الكبد الوبائي وغير ذلك من الأمراض .

رابعاً : حرص رسول الله ﷺ على نظافة الطعام والاستفادة منه .. بعد اعداده ما أمكن ، وعدم رغبته ﷺ في الطبيخ البائت ، وهذا بأسلوب العصر يعني تحاشي تلوث الطعام من الحشرات أو الغبار أو المخالطين ، وترك الطعام المطبوخ في أوانيه فترة طويلة ، عند عدم توفر أساليب الحفظ المختلفة ، يؤدي إلى تعرضه للتلوث والتسمم ، فلو أضفنا إلى

ذلك تأكيده ﷺ على ضرورة غسل اليدين قبل الطعام وبعده ، ودعوته إلى تقليم الأظافر ، وعدم التنفس في الاناء ، أدركنا حرصه الشديد على نظافة ما نأكل وما نشرب ، وقد أوردنا بعض الأحاديث والوقائع التي تشتمل على هذا المعنى الصحي الهام .

خامساً : عدم الاكثار من الطعام ، أو تجنب الشراهـــة والتخمة ، ولقد وضع الرسول الكريم قاعدته الشهيرة في ذلك حين قال عند قوم « لا نأكل حتى نجوع واذا أكلنـــا لا نشبع ، وحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه » ومما لا شك فيه ان التخمة وما تؤدي اليه من السمنة لم يعد الخطر فيها قاصرا على المضاعفات البدنية وحدها وانما يتعدى ذلك إلى أضرار اجتماعية ونفسية واقتصادية وعقلية ، وكانت التجربة أصدق دليل على ذلك في القديم أيام الرسول ﷺ وفي الحديث على أيامنا ، واذا تجولنا عبر التاريخ استطعنا أن نستشف المآسي المختلفة في عصور الرفاهة والشهوة والرخاء المادي مع الجفاف الروحي ، وعلى النقيض من ذلك نرى الانجازات الباهرة والانتصارات العظيمة ، حينما تسمو أشواق الروح على مطالب الجسد ، ويلتزم الناس بالمبادىء والقيم الخالدة في سلوكهم ومعاملاتهم ومطعمهم ومشربهم ومسكنهم ، كما أن تصدي

الزحف الاسلامي الأول – بقلة عدده وعدده – جحافل الفرس والرومان (أقوى مملكتين آنذاك)، والنصر المؤزر الذي أفاض الله به على المسلمين –، ذلك كله ما نهدف اليه من معنى ، حينما نتكلم عن ضوابط الغذاء وشهوات الطعام والشراب والنساء في الاسلام.

سادساً : وكان رسول الله يقبل على المشوي من اللحوم ويطلبه ، فعن عبد الله بن الحرث قال : « أكلنا مع الرسول ﷺ شواء في المسجد » وعن مغيرة ابن شعبة قال : « ضفت رسول الله ذات ليلة ، فأمر بجنب فشوى ، ثم أخذ الشفرة فجعل يحز لي بها منه الخ ... الحديث.

ولقد أصبح من الواضح أن المشوي أقل دسامة من المقلي ، ولذلك يوصي الأطباء الآن بتفضيل المشوي على المقلي تجنباً للمواد الدهنية التي أصبحت زيادتها في الطعام سبباً من أسباب تصلب الشرايين وعسر الهضم والبدانة وغير ذلك من المضاعفات والمتاعب المختلفة.

سابعاً : الجمع بين الطازج والمطبوخ في الوجبات الغذائية.

ثامناً : وضع آداب اجتماعية وسلوكية للأكل ، كأن يأكل الانسان مما يليه ، وأن يتناول طعامه في روية

دون عجل ، وألا يسرف فيما يأكل ، بحيث يجعل ثلثاً لطعامه وثلثاً لشرابه ، وثلثاً لنفسه على أقصى افتراض .

* * *

خلاصة القول أن الطب النبوي اعتبر الغذاء عنصراً أساسياً للصحة ، لا يمكن الاستغناء عنه وميز بين أصنافه المختلفة ، وأعطى تصورات حقيقية ثبت صدقها بالمقاييس العلمية والتجريبية ، لتأثير بعض الأنواع ، وأرشدنا إلى الواجبات الصحية ، والخطوات المختلفة الواجب اتخاذها لحماية هذا الطعام والشراب من التلوث والتلف ، ومع الأهمية التي أعطاها للغذاء ، الا أن الطب النبوي وضع القاعدة للصحة حيث نفر من التخمة ، وأوصى بالقصد في المأكل وفي المشرب ، وحظر من مضار امتلاء المعـــدة بالطعام .... لقد جمع الطب النبوي بين الأهمية الكبرى للغذاء ، والمحاذير التي يجب الالتفات اليها بالنسبة لغذاء الأصحاء والمرضى ... وهو كمال ما بعده كمال .

وصدق الله العظيم اذ يقول : « كلوا واشربوا ولا تسرفوا »

« ومن أصدق من الله قيلا » ؟؟

الطبّ النّبويّ والرّياضة

قررت كتب الدراسات الطبية ، والطب النبوي خاصة، فصولا للرياضة ، الرياضة بمفهومها الواسع الشامل ، رياضة البدن ، ورياضة النفس ، ورياضة الحواس .

والواقع أن الرياضة البدنية درجات ، فان ما يصلح للصبية والشباب ، يختلف عما يصلح لكبار السن ، وما يصلح للأصحاء يختلف عما يصلح للمرضى ، وتحتل الحركة ، مكاناً بارزاً فيما نسميه اليوم بالعلاج الطبيعي Physio-Therapy فهي ضرورية في الحالات التالية : —

١ — عقب كسور الأطراف .

٢ — الأطراف المصابة بالشلل الطارىء أو الدائم .

٣ — مرضى القلب .

٤ — مرضى عسر الهضم ، واضطرابات الجهاز الهضمي .

٥ ـ ضعف العضلات أو ضمورها .

٦ ـ عقب العمليات الجراحية أو الولادة .

٧ ـ السمنة .

٨ ـ تيبس المفاصل .

٩ ـ قصور الحركة ببعض الأعضاء ... الخ والرياضة في نظر الطب النبوي تساعد على تخليص الجسم من فائض أو زائد الغذاء ، لأن الاحتراق الناجم عن الحركة يقضي على المختزن الزائد في الأنسجة من المواد الغذائية ، فالأكل مع التراخي والكسل وقلة الحركة يضر بالجسم ويؤدي إلى السمنة التي يعقبها مخاطر جمة وللغذاء مخلفاته وسمومه مثل الدواء تماماً ولا خلاص من هذه التراكمات الضارة الا بالرياضة المناسبة أو الصوم . فالرياضة تكسب الجسم خفة ونشاطاً ولياقة ، وتقوي العضلات والأربطة ، وتحمي من الأمراض البدنية والامراض النفسية أو على حد تعبير مؤلف الطب النبوي « تؤمن جميع الأمراض المادية ، وأكثر الأمراض المزاجية (النفسية) اذا استعملت بالقدر المعتدل منه في وقته ، وكان باقي التدبير سوابا » [1] كما يحدد الطب النبوي وقتاً للرياضة ، فيشترط ان

---

(١) الطب النبوي ص / ١٩٢ .

تكون بعد انحدار الغذاء ، وكمال الهضم وهو ما يتفق مع النظرات العلمية الحديثة ، لأن الرياضة بعد الأكل مباشرة لها مضارها اذ ان الأكل يتدفق بنسبة أكبر عقب الأكل مباشرة إلى المعدة ، فاذا ما مورست الرياضة في تلك الفترة ، زاد العبء على القلب — وخاصة المسنين ومرضى القلب — والمصابين بقصور الدورة ... الدموية التاجية — حاق بالقلب أضرار قد تكون بليغة ...

وأنواع الرياضة كما وردت في الطب النبوي تتراوح بين المشي وركوب الخيل ورمي النشاب والصراع والمسابقة على الاقـدام والسباحة ، ورياضـة النفوس بالتعليم .. والتأدب والفرح والسرور ، والصبر والثبات والاقدام والسماح وفعل الخير ، ونحو ذلك مما ترتاض به النفوس ومن أعظم رياضتها الصبر والحب والشجاعة والاحسان ، فلا تزال ترتاض بذلك شيئاً فشيئاً حتى تعير لهذه الصفات هيآت راسخة ، وملكات ثابتة ... ولا ريب أن الصلاة فيها حفظ للبدن ، بالاضافة إلى حفظ صحة الايمان ، وسعادة الدنيا والآخرة ، وكذلك قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة ، وفي الصوم الشرعي من أسباب حفظ الصحة ، ورياضة البدن والنفس ما لا يدفعه صحيح الفطرة ، وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الصيام في رمضان اذا روعيت فيه الآداب السلوكية المختلفة ، يقي الجسم من سموم الأغذية

والأدوية ، فكأنه يغسل الأنسجة من أدرانها ، فتبدو في ثوب جديد ، والعجيب أن أعضاء الجسم المختلفة لا تتأثر بالصيام بنفس الدرجة ، فالجهاز العصبي لا يفقد شيئاً من جوهره وبنائه ، .... والقلب لا يفقد سوى ٣٪ اما الكبد (وهو مخزن لمواد غذائية مختلفة ومواد كيماوية وبيولوجية) والطحال والعضلات فانها تفقد ما يتراوح بين ٣٪ ، ٦٥٪ وهي مواد في حكم الزائد الذي به ثقل البدن .

وأما الجهاد وما فيه من الحركات الكلية التي هي من أعظم أسباب القوة ، وحفظ الصحة وصلابة القلب والبدن ، وزوال الهم والغم والحزن ، فأمر يعرفه من له نصيب ، وكذلك الحج وفعل المناسك والمسابقة على الخيل بالنصال ..

ولقد ألمحنا إلى تفاوت درجـــات الرياضة ، فالمسنون مثلاً تناسبهم رياضة المشي ، وقد لوحظ أن علاج ضيق شرايين القلب أو انسدادها ، وهو من الأمراض القاتلة ، لوحظ ان ذلك العلاج يعتمد في المفهوم الحديث على الرياضة المناسبة ، تلك التي تساعد على نشوء دورات دموية جانبية لتعويض الشرايين المسدودة أو الضيقة ، ومد عضلة القلب بما تحتاجه من دماء كما وجد الأطباء ان الجهد العضلي يريح الجهاز العصبي وكأنه يقوم بعملية تشبه عملية التدليك المريحة ، ولذلك نرى أن أمراض العصر تنتشر بين المرفهين والمرفهات الذين يحيلون معظم أعمالهم للخدم . ولا ينتقلون من مكان

إلى مكان ، الا بواسطة السيارات ، وقد أورثهم هذا الاسلوب من الحياة الكثير من الكسل ، والثقل وهموم السمنة ، ومضاعفاتها الخطيرة ، وارتباك الهضم ،.. والسقوط في براثين العلل والقلق.

والواقع ان الطب النبوي في مجال الرياضة كما في مجال غيره – يحرص على حماية الأبدان والنفوس ، وهو نوع من الكمال ، لا زيادة فيه لمستزيد ، على الرغم من مرور القرون الطويلة.

والواقع أن الطب الحديث يتجه في هذه السنين الأخيرة إلى اللجوء لأبسط وسائل العلاج والوقاية ، وهي تكمن أساساً في أسلوب الحياة السليم ، والاهتمام بالحركة والرياضة والنزهات والأسفار ، وتنظيم الغذاء أكثر من اعتماده على العقاقير الطبية الصناعية التي أصبحت برغم فائدتها في كثير من الظروف موضع اتهام في جميع أنحاء العالم ، لما تخلفه من اثار جانبية ونتائج مشكوك فيها احياناً ، وخاصة بعد أن غلبت عليها الناحية التجارية ، ورافقها أخبث أنواع الدعاية.. وقد لاحظت أثناء متابعتي لبعض مرضى القلب ، أن أطباءهم – وخاصة في انجلترا قد سحبوا كل ما كان يعطى لهم من موسعات للشرايين ، ومسيلات للدم منعاً للتجلط ، وتحولوا في أسلوب العلاج إلى أنواع من الرياضة المتدرجة وقد أتت

هذه الأساليب القديمة (المستحدثة) بنتائج ممتازة عند الكثيرين منهم ..

ولا يكون الأمر متروكاً لرغبة المرء ، لذلك فقد جمعت الصلاة والصوم والجهادِ والسعي لخدمة الناس ومجاملتهم ، هذه الأشياء قد جمعت بين الوان الرياضة الجسدية والنفسية وأصبحت في صحيحها الزاماً للمسلم باعتبارها فرضاً (العبادات) على المؤمن ، ويحاسب عليه اذا — أهمله ، وهكذا امتزجت الرياضـــة الجسدية والنفسية بالشعـــائر والعبادات ، وأصبحت كياناً واضحاً وواحداً يصبغ حياة المسلم بصبغة ربانية ، ويا لها من حكمة إلهية سامية ؟؟؟؟ .

الطِّبُّ النَّبَوِي وَالعِلَاجُ بالمحَرَّمَات

ذكر البخاري في صحيحه عن ابن مسعود :

« ان الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم » ومن حديث أبي الدرداء قول الرسول ﷺ ان الله انزل الداء والدواء ، وجعل لكل داء دواء ، فتداووا ، ولا تداووا بالمحرم » .

ان أمر التداوي بالمحرم قضية شائكة ، فهي ليست قاصرة على عدد قليل من العقاقير الطبية ولو كان الامر كذلك لهان الأمر ، لكن المشكلة ان التداوي .. بالمحرمات بالنسبة لكثير من الأمراض النفسية وبعض الأمراض العضوية قد أصبح شائعاً لدرجة خطيرة ، وتعدى المواد المحرمة إلى سلوك شأن لا يتفق والمبادىء الأخلاقية ، ونهج الشريعة الاسلامية ويتضاد مع صالح المجتمع والفرد .

ويمكننا أن نوجز تلك المحرمات في مجموعات أربعة رئيسية : —

أولاً : المشروبات الكحولية ومشتقاتها ، التي تتفق معها في الأثر قلت تلك المشروبات أو كثرت ، وازداد أثرها أو تضاءل .

ثانياً : المخدرات : وهي أنواع كثيرة ، وتعد مشتقاتها ومنتوجاتها الصناعية .. والطبيعية بالمئات ، وهي تستعمل أكثر في المجالات الخاصة بالأمراض النفسية ، كذلك بعض الأمراض العضوية كالآلام والأمغاص ..

وادمانها يعتبر كارثة بدنية ونفسية واجتماعية .

ثالثاً : التسيب الأخلاقي ، والحرية الجنسية ، باسم التغلب على عقد الكبت النفسي ، وعلاج الأزمات والاضطرابات النفسية الناتجة عن القيود الأخلاقية وهذه نقطة خطيرة لم يتنبه اليها الكثيرون من الباحثين ولم يدرجوها في قائمة المحرمات العلاجية.

رابعاً : وهذه المجموعات الاربعة تشمل بعض أنواع الحشرات والحيوانات وأساليب الدجل الاخرى التي تراها في الشعوذة والخرافات المتنوعة التي تنتشر بين الجهات والطبقات الفقيرة دون استناد إلى دليل علمي أو منطق مجرب يمكن دراسته وتحليله .

ويمكننا آن نتناول تلك المجموعات الأربعة بشيء من الايجاز في ضوء الطب النبوي ، واستنتاجات علمائه وتعليماتهم .

أولا ـ المشروبات الكحولية :

لم يعد خافياً على أحد ما للمشروبات الكحولية من أضرار وخيمة ، على أجهزة جسم الانسان وخاصة في حالة الادمان ، اذ انها تؤثر على الجهاز العصبي المركزي والأعصاب الطرفية ، ولها أيضاً مفعول ضار بالجهاز الهضمي وخاصة الكبد والمعدة والاثنى عشر ، ومن المعروف ان الجهاز العصبي هو المسيطر على كل أجهزة الجسم فمتى أصابه الخلل والاضطراب ، أدى ذلك إلى اثارة الانحراف في مختلف أجهزة الجسم والواقع أن هناك بعض الأمراض التي تزداد سوءا اذا كان المصاب بها يدمن الخمر ، مثال ذلك مرض الدرن (السل) ، ومرض القلب والمعدة والكبد وغيرها ، ولذا نرى الأطباء يوصون المريض بعدم تعاطي المشروبات الكحولية والا عرض نفسه للخطر ، فالخمر اذن لها تأثير على مختلف أجهزة الجسم بطريق مباشر أو غير مباشر وهذه حقائق علمية مؤكدة ، تدرس لطلبة الطب في كل أنحاء العالم ، لأنها من الأمور المتفق عليها ، وعندما نقرأ في تراثنا نرى في صحيح مسلم ، عن طارق بن سويد الجعفي أنه سأل النبي ﷺ عن الخمر ، فقال : انه ليس بدواء ، ولكنه داء .

وفي السنة « انه ﷺ سئل عن الخمر يجعل في الدواء ، فقال انها داء ، وليست دواء » .

ويذكر عنه ﷺ أنه قال : « من تداوى بالخمر فلا شفاه الله » وعن أبي هريرة : نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث » .

ويذكر صاحب الطب النبوي [1] في كتابه تعليقاً يقول فيه :

المعالجة بالمحرمات قبيحة عقلاً وشرعاً ، وأما الشرع فما ذكرنا من هذه الأحاديث وغيرها وأما العقل فهو ان الله سبحانه وتعالى حرمه لخبثه ، فانه لم يحرم على هذه الأمة طيباً عقوبة لها ، كما حرمه على بني اسرائيل بقوله (فبظلم من الذين هادوا ، حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم)[2] وانما حرم على هذه الأمة ما حرم لخبثه ، وتحريمه له حمية لهم ، وصيانة عن تناوله ، فلا يتناسب أن يطلب به الشفاء من الأسقام والعلل ، فانه وان أثر في ازالتها ، لكنه يعقب سقماً أعظم منه في القلب ، بقوة الخبث الذي فيه ، فيكون المداوي به قد سعى في ازالة سقم البدن ، بسقم القلب ، وأيضاً فان تحريمه يقتضي تجنبه ، والبعد عنه بكل طريق ، وباتخاذه

---

(١) الطب النبوي لابن قيم الجوزية ص / ١٢٢ .
(٢) سورة النساء : ١٦٠ .

دواء حض على الترغيب فيه وملابسته ، وهذا ضد مقصود الشارع وأيضاً فان الخمر داء كما نص عليه صاحب الشريعة، فلا يجوز أن يتخذ دواء ...

وأيضاً فان في اباحته للتداوي به ، ولاسيما اذا كانت النفوس تميل اليه ، ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة ، ولاسيما اذا عرفت النفوس أنه نافع لها ، مزيل لأسقامها ، جالب لشفائها فهذا أحب شيء اليها ، والشارع سد الذريعة إلى تناوله بكل ممكن ، ولا ريب أن بين سد الذريعة إلى تناوله ، وفتح الذريعة إلى تناوله ، .. تناقضاً وتعارضاً .. أيضاً فان هذا الدواء المحرم من الأدواء ، ما يزيد على ما يظن فيه من الشفاء وليفرض الكلام في أم الخبائث ، التي ما جعل الله لنا فيها شفاء قط ، فانها شديدة المضرة بالدماغ ... الخ .

ومن هنا ترى اتفاق الطب النبوي ، ونصوص الأحاديث النبوية الصحيحة تتفق تماماً مع الدراسات والحقائق العلمية الحديثة ، تبقى نقطة هامة ان المشروبات الكحولية أو الكحول يدخل ضمن المطهرات أو المواد القاتلة للميكروبات ، كما يدخل كمادة .. مذيبة لبعض العناصر الدوائية ، ويدخل في الروائح العطرية ومن ثم يضعه البعض على البشرة بعد الحلاقة مثلا ممزوجاً بالروائح الطيبة ، أو يطهر به البعض الخدوش ، .. والبعض الآخر يتعاطى الأدوية التي يدخل فيها الكحول (الذي هو أساس المشروبات المسكرة) وخاصة

بعض المقويات والأدوية الفاتحة للشهية .

والواقع أن رأي الفقهاء في مثل هذه الأمور في عصرنا واضح تمام الوضوح ، فهم يحرمون مثل تلك الأمور اذا كان لها بدائل تغني عنها ، ومن ثم فان المطهرات الغير كحولية تعد بالمئات بل بالالاف والمقويات والمشهيات أنواعها عديدة جداً ، ولا حاجة اطلاقاً لأن تكون «كحولية» بالذات ، فالمواد الحامضية ، كالليمون مثلا ، والمواد الحريفة ... الخ كلها تعتبر مواد مشهية ، بل ان جمال اللون والرائحة قد يكون سبباً في اثارة الشهية لدى الانسان .... وفي الامكان قصر استعمال الكحول في بعض الصناعات الأخرى غير الدوائية – كالاصباغ وغيرها ، ولا حاجة لأن .. يدخل ضمن العقاقير التي يسمح بتعاطيها ، لكن المشكلة ان معظم شركات الأدوية ، ان لم يكن كلها – شركات لا تلتزم بأمور الدين ، وخاصة في العالم الأوروبي والأمريكي وفي كثير من شعوب آسيا وأفريقيا ، ليست شركات الأدوية هي التي تفعل ذلك وحدها بل شركات الانتاج الغذائي هي الأخرى ، تلك التي تدخل بعض المحرمات في الأطعمة التي تعدها للتوزيع كالأطعمة المحفوظة وبعض أنواع الحلوى ، وبعض المنتوجات الشحمية التي يضاف اليها شحم الخنزير .. الخ .

والقضية ليست في الكمية ، لأن ما أسكر كثيره فقليله حرام ، وقد يعتقد البعض أن المواد التي تؤخذ بالفم فتسكر

هي وحدها الحرام ، والواقع أن عدداً من المواد تستطيع أن تمتص من خلال البشرة في ظروف معينة ، وبذلك يمكنها أن تصل إلى الدم ولو بنسب ضئيلة فهل من اللائق تجاهل هذا الأمر لأن أثره غير واضح ، لأنه لا يؤخذ عن الطرق الطبيعية ، وبالكيفية المعروفة ؟ ؟ تلك قضية تحتاج إلى دراسة .. واعية ، ورأي حاسم .

ثانيا – المخدرات :

تطلق كلمة المخدرات على كثير من المواد الطبيعية والكيماوية التي تؤدي إلى خدر الجسم والعقل ، والمواد المخدرة تختلف في آثارها ومضاعفاتها واستجابة الجسم والعقل لها ، وكثير من هذه المواد قد يؤدي إلى الادمان ، بحيث لا يستطيع متعاطيه أن يستغني عنه والا أصيب بأضرار مختلفة قد تصل إلى الموت ، وخاصة عند التوقف المفاجيء لمن اشتد الادمان لديه ، وبعض هذه المواد قد يؤدي إلى السكر أو غياب العقل أو يؤدي إلى لون من التخيل وتصور أمور لا وجود لها ، فكأن المتعاطي يعيش في أحلام مزوقة جميلة ، فاذا ما انتهى أثر المخدر ، شعر المدمن بحالة من الاضطراب وعدم الاستقرار والكآبة والتوتر ، ويظل في تدهور وتوتر بل ان أجهزة الجسم تتأثر على اختلاف أنواعها ، فالعيون تحتقن وتدمع ، والأنف يسيل والبطن تمغص وتسهل وتقيء ، كما في حالة التوقف المفاجيء عند تعاطي الأفيون وهناك

بعض المواد المخدرة ، كالحشيش مثلاً — تعطي للمدمن احساساً خاطئاً بالزمن والمسافة ، وكذلك الحالة النفسية ، فإذا أكل وهو تحت تأثير المخدر قدراً يسيراً من الطعام ، خيل اليه أنه كان شرها لدرجة التخمة ، واذا مشى مسافة تعد بمئات الأمتار ، ظن أنه مشى مسافات طويلة تعد بالأميال ، ونفس الشيء يحدث بالنسبة للاحساس بفترة « الجماع » اذ يظن بعض الناس أن تعاطي الحشيش يطيل مثل هذه الفترة ، مع أن ذلك وهم خالص ..

ولقد انتشرت الأدوية المخدرة في كل أنحاء الدنيا انتشاراً رهيباً ، وتفشت المخدرات بين الشباب وخاصة في أوروبا وأمريكا ، فسمعنا عن عقار الهلوسة أو عقار ل.س. د ، وتسببت هذه المخدرات في كثير من الانحرافات والكوارث الاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، بل زوقت الأوهام والخيالات ، ووضعت فلسفات وسلوكاً غريباً في الحياة وأدت إلى قيام بعض جرائم القتل الجماعية ، ودمرت الكثير من الأخلاقيات وحطمت الكثير أيضاً من أمن المجتمع وسلامته ، والدراسات التي اجريت على المدمنين في مختلف الدول دراسات متنوعة ، لكن الشيء الملفت للنظر أن الدارسين عندما حاولوا البحث عن أسباب الوقوع في كارثة الادمان وجدوا ان هناك عوامل كثيرة مساعدة لها : —

(١) الاصابة باضطراب نفسي ، أو قلق وتوتر ، وغير

ذلك من الأعراض النفسية الناجمة عن ظروف خاصة أو عامة ، هذا الاضطراب النفسي قد يورث الشخص المريض به استعداداً خاصاً لتعاطي المخدرات كوسيلة من وسائل الهروب .

(٢) صحبة السوء : محاولة الأصدقاء الالتزام بتصرفات معينة موحدة ، فاذا كان بعضهم ممن يدمنون المخدرات ، اقتدى بهم الباقون ، كاثبات لرجولتهم ، وتأكيداً لقدراتهم على فعل ما يشاءون دون خوف من أحد .

(٣) الآلام العضوية قد تدفع المريض إلى تعاطي المخدرات في البداية بغ ض تخفيف الآلام ، فاذا كانت تلك الآلام متكررة أو مزمنة ، كالمغص الكلوي أو المراري أو الصداع ... الخ ، فان المريض يضطر لأخذ المخدر مرة أخرى (وخاصة الأفيون أو المورفين) وهكذا تتعدد نوبات الألم وجرعات المخدر ، وبالتدريج يصبح المريض في أشد الحاجة إلى تعاطي المخدر بصفة دائمة ، وهكذا يصبح مدمناً .

(٤) تيارات الرفض بين الشباب في كثير من أنحاء العالم ، وسخطهم على الأوضاع القائمة وسياسات القوى الكبرى ، ودمار القيم العليا ، وسيطرة المادية ، والفلسفات الحائرة كل ذلك دفع الشباب إلى البحث عن واحة زائفة يستظلون فيها فقدم لهم الأبالسة وتجار

السموم ، أصنافاً مختلفة من المخدرات ، تهدف لتغطية الآلام ، ودغدغة الحواس ، والهاب الأحلام الجنسية ، والتحلل من المسئولية ، والاقدام على تصرفات طائشة غير مسئولة ..

(٥) المشاكل الاقتصادية والعاطفية قدتجر إلى كارثة الادمان على المخدرات ..

وتفشي المخدرات ليس قاصراً على الاوساط القادرة اقتصادياً وحدها ، بل ان تنتشر أكثر في الأوساط العمالية والبيئات التي ينتشر فيها الجهل والفقر والمرض ، فهي مشكلة عامة في آسيا وأفريقيا أيضاً ، وليست في أمريكا وأوربا وحدها ... وتحريم المخدرات في الاسلام أمر قديم ، وان سبقه تحريم الخمر ، ولا شك أن ظهور الحشيش في أواخر المائة السادسة بعد الهجرة . هو الذي حرك العلماء والفقهاء لاصدار الفتاوي فيها ، وهي مجمعة على تحريمه وقد ذكر ابن تيمية في كتابه السياسة الشرعية ، وكذلك تلميذه (ابن القيم في كتابه « زاد المعاد » وغيرهما من العلماء القدامى والمحدثين ، أن الحشيش حرام ، وفي كلام سيد الخلق : «كل مسكر خمر ، وكل خمر حرام » ، وفي حديث أم سلمة : نهى ﷺ عن كل مسكر ومفتر .. « فالمسكر والمفتر حرام ، أيا كانت المادة التي استعملت سائلة أو جامدة ، مطبوخة أو غير مطبوخة ، عن طريق الفم أو الحقن أو غير ذلك من الوسائل المختلفة .

والتداوي بالمخدرات ، انما هو تداو بالمحرم ، ومن ثم فان ما ينطبق على الخمر ينطبق عليها ، ونستطيع أن نقرأ في أي مرجع من المراجع الطبية الآثار التي تتركها المخدرات في جسم الانسان ، والتغيرات الخطيرة التي تقلب النسق البديع لعمل الأجهزة ، وتعادل السوائل وافراز المواد الزائدة والاتساق .. النفسي والعصبي ، ان العلاج بالمخدرات يكمن أساساً في نقطتين : —

أولهما — تسكين الآلام العضوية .

ثانيهما تهدئة الاضطرابات والتوترات النفسية .

ونلاحظ انه في كلتا الحالتين ليست المخدرات علاجاً بالمعنى العامي الصحيح لهذا قلنا بالنسبة للنقطة الأولى(تسكين الآلام) ولم نقل شفاؤها ، وأيضاً في النقطة الثانية لم نقل شفاء الاضطرابات النفسية ، انما قلنا تهدئتها .. ... فالمخدرات أساساً أدوية ليست لعلاج العلل النفسية أو العضوية ، انما لمجرد تخفيف الأعراض الناجمة عن المرض ، لأن العلاج الحقيقي انما يكمن في علاج السبب الذي صنع الداء وتخفيف الأعراض ليس علاجاً حاسماً للداء ، ولكي نزيد الأمر توضيحاً اذا كان هناك مريض يشكو من صداع ، فليس العلاج الصحيح هو أن يتعاطى قدراً من المخدرات أو المسكنات لان أثر المخدرات أو المسكن سوف يزول ،

لان .. مفعول المسكن محدود بفترة زمنية محددة ، وانما العلاج الصحيح هو أن نبحث أولا عن سبب الصداع ... هل هو حمى معينة ؟ ؟

هل هو ارتفاع ضغط الدم ؟ ؟ هل هو الهم والغم والأرق ؟ ؟ هل هو الامساك أو أمراض العين أو الأسنان أو الجيوب الأنفية أو أورام المخ .. أو .. الخ ؟ لا بد من أن نجتث الداء من جذوره ، عندئذ تختفي الالآم والأعراض والعلامات ، .. وقد يكون علاج السبب جراحياً أو دوائياً أو نفسياً ، وقد تكون هناك مشكلة من المشاكل الخاصة التي لا يفصح عنها المريض فلا يؤدي إلى التشخيص الصحيح للعلة ... ... والتشخيص هو البداية الصحيحة لخط سير العلاج .

فعلاج الصداع بالأفيون أو المورفين لن يقضي على سبب الداء ، وهكذا يعاود المريض الألم ويتكرر أخذ المخدر حتى يحدث الادمان ، والادمان مرض من ألعن الأمراض وأخطرها ، لأنه يتلف الجهاز العصبي ، ويؤثر على الكبد والكلي ، وكثير من الغدد ، ويجعل الجسم يتعود على هذا المخدر ، كما يتأثر القلب وتتأثر الشرايين والجهاز الهضمي مما تناولته الكتب الطبية بالتفصيل ... لقد أراد البعض أن يعالج داءه .. بالمخدرات، فأصيب بمرض أخطر وهو الادمان الذي يسرع بخطى الانسان إلى القبر ، ويسبب الشفاء

الأبدي ، ويدمر كيان الفرد والمجتمع .. فتحريم المخدرات أمر يتفق وطبائع الأمور والآثار السيئة التي تنجم عنها عضوياً ونفسياً ، ولا يحد عن تلك الراحة الكاذبة التي يتحصل عليها المريض اذا تعاطى بعض الأدوية المخدرة ...

وقد أفتى بعض العلماء باباحة العلاج بالمخدر اذا لم يكن له بديل ، وبشرط أن يكون على يدي طبيب مسلم موثوق فيه ، وبالقدر الذي يحتاجه المريض فقط ، ولقد تنبه الامام ابن حجر لنقطة هامة في علاج المدمنين ، فأوصى بأن يكون علاجهم تدريجياً ، حتى تنقص الجرعة التي يتعاطاها المدمن من المخدر تدريجياً ، حتى لا يصاب بالوفاة ، وفي هذا الأسلوب التدريجي للتخلص من الادمان حفاظ على حياة المدمن .

وفي فتوى الشيخ جاد الحق علي جاد الحق يقول : [(١)]

الاسلام حرم مطعومات ومشروبات صوناً لنفس الانسان وعقله ورفع هذا التحريم في حال الضرورة فقال « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه »[(٢)] . وقال : وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه» .[(٣)]

---

(١) المخدرات في رأي الاسلام ص / ١٠٠ - ١٠٢ .
(٢) سورة البقرة ١٧٣ .
(٣) سورة الأنعام ١١٩ .

ولقد استنبط الفقهاء من هذه الآيات ومن أحاديث رسول الله ﷺ في الضرورة قواعد يأخذ بعضها بحجز بعض فقالوا « الضرر يزال والضرورات تبيح المحظورات ، ومن ثم أجازوا أكل الميتة عند المخمصة ، واساغة اللقمة بالخمر ، والتلفظ بكلمة الكفر عند الاكراه عليها (الا من أكره وقلبه مطمئن بالايمان) [1] وقالوا أيضاً ان الضرورة تقدر بقدرها ، وما جاز لعذر بطل .. بزواله والضرر لا يزال بضرر .. وقد اختلف الفقهاء في جواز التداوي بالمحرم ، والصحيح من آرائهم هو ما يلتقي مع قول الله في الآيات البينات السالفات ، بملاحظة أن اباحة المحرم للضرورة مقصور على القدر الذي يزول به الضرر ، وتعود به الصحة ، ويتم بـه العلاج ، وللتثبت من توافر هذه الضوابط ، اشترط الفقهاء الذين أباحوا التداوي بالمحرم شرطين أحدهما أن يتعين الطبيب بالصدق والأمانة والتدين والآخر ألا يوجد دواء من غير المحرم ، ليكون التداوي بالمحرم متعيناً ، ولا يكون القصد من تناوله التحايل لتعاطي المحرم ولا يتجاوز به قدر الضرورة ، وقد أفتى ابن حجر المكي الشافعي [2] حين سئل عمن ابتلى بأكل الأفيون والحشيش ونحوهما ، وصار

---

(١) سورة النحل ١٠٦ .

(٢) نقل هذا ابن عابدين في حاشيته المختار جـ ٥ ص / ٤٥٦ في آخر الكتاب الحظر والاباحة .

حاله بحيث اذا لم يتناوله هلك ، أفتى بأنه اذا علم أنه يهلك قطعاً حل له بل وجب لاضطراره لابقاء روحه.. كالميتة التي يأكلها المضطر ، ويجب عليه التدرج في تقليل الكمية التي يتناولها شيئاً فشيئاً حتى يزول اعتياده ، وهذا ــ كما تقدم ــ اذا ثبت بقول الأطباء الثقات ديناً ومهنة أن معتاد تعاطي المخدرات يهلك بترك تعاطيها فجأة وكلية ... وترتيباً على هذا فاذا ثبت أن ضرراً ماحقاً محققاً وقوعه بمتعاطي .. المخدرات سواء أكانت طبيعية أو مخلقة اذا انقطع فجأة عن تعاطيها جاز ... مداواته ، بإشراف طبيب ثقة متدين حتى يتخلص من اعتياده ، كما أشار العلامة ابن حجر في فتواه المشار اليها لأن ذلك ضرورة ، والا اثم في الضرورات الا اذا روعيت شروطها المنوه بها اعمالا لنصوص القرآن الكريم.

هذا وانه مع التقدم العلمي في كيمياء الدواء لم تعد حاجة ملحة للتداوي بالمواد المخدرة المحرمة شرعاً لوجود البديل الكيميائي المباح .

والواقع أن المخدرات كدواء يختلف عن كثير من العقاقير الأخرى ، فمثلا المضادات الحيوية تقتل الجراثيم والميكروبات ، فيختفي المرض ويشفى المريض ، والانزيمات الهاضمة تعوض الجسم عن قلة الانزيمات التي تفرز في جهازه الهضمي ، ولهذا تشفى من عسر الهضم حتى يتخلص الجسم من خلله ، والأدوية التي تقتل الطفيليات أو ثعابين البطن

أو الفطريات الجلدية وغيرها كل تلك العقاقير علاجاً .. فهي تختلف عن المخدرات التي تسكن الألم ، أو تجلب النوم أو تروق الخيالات ... والتصورات ، وتساعد الانسان على هروبه ... والعلاج بالمخدرات يكون في نطاق ضيق جداً ... فمثلاً نحن في حاجة ماسة إلى استعمال المخدر لاجراء العمليات الجراحية حتى لا يشعر المريض بمبضع الطبيب وهو يمزق في جلده وأحشائه .. فهذا أمر لا خلاف عليه ..

أما أن أتعاطى المخدر للصداع ... أو للمغص .. أو لمجرد الانسجام .... أو التخلص من أزمة نفسية طارئة ، فهذا سلوك غير علمي ... بالاضافة إلى أنه سلوك غير ديني ..

وجناية العلاج بالمخدرات المصنعة قد تعدت المتعاطي إلى الأجنة في بطون الامهات فقد لوحظ ان بعض الاطفال الذين يولدون في أمريكا يصرخون ويتشنجون .. ويرفضون الغذاء ويستمرون هكذا لبضعة أيام ونسبة كبيرة منهم يلاقون حتفهم ، واتضح بعد الدراسة أن السبب هو ان أمهات هؤلاء الأطفال كن يدمن المخدرات أثناء فترة الحمل ، ونتج عن ذلك ان الجنين تعود على المخدر وهو في بطن أمه ، لهذا عندما خرج من بطن الأم بعد الولادة ، ولم يعد يصل اليه ، أصيب بنوبات الصراخ والبكاء والامتناع عن الطعام والنوم مما يقضي عليه ، ولهذا وجد الأطباء أنفسهم مضطرين إلى اعطاء هؤلاء المولودين جرعات متناقصة من المخدر الذي كانت تتعاطاه

الام ، ويسحب تدريجياً إلى أن تمر الأزمة التي يمر بها الجنين ويشفى من الادمان ، وهو نفس الاسلوب الذي أشار اليه العلامة ابن حجر في فتواه السابقة ...

وهناك علاقة وثيقة بين الاقبال على المخدرات وبين ضعف الوازع الديني .. أو الايمان فان الارادة القويـــة والتمسك بالآداب الشرعية ، والتوكل على الله والرضى بقضائه ، كلها من الأمور التي تحفظ للنفس اتزانها وصمودها وتعتصم بالصبر ، وتتأثر وتبعد عن كل ما من شأنه أن يهوى بذاته ،أو يضعف من شخصيته ،أو تأخذ بيده إلى مهابط الرذيلة ، ومساقط العادات السيئة ،أو الهروب إلى جنة الوهم التي تصنعها المخدرات ..

من هنا تتجلى حكمة الشارع حينما نهى عن التداوي بالمحرم سواء أكان خمراً .. أم مخدرات أم غيرها من الأمور الأخرى التي تتعارض مع القيم النبوية العريقة ... والأمر لا يحتاج إلى كبير تأكيد ، بعد أن فرضت الدول العقوبات الشديدة على تجار ومتعاطي المخدرات تلك العقوبات التي بلغت الاعدام لكن الامر الغريب هو التشدد في عقوبـــة المخدرات والتساهل في عقوبة الخمر في معظم البلدان ، مما حدا ببعض المفكرين الظرفاء إلى القول بأن « القانون يحابي الخمر على حساب المخدرات » .

ثالثا – التسيب الأخلاقي :

ان الحرية الجنسية أصبحت سلوكاً شائعاً في كثير من بلدان العالم المتقدم أو ... المتمدين والغريب ان هذا السلوك اعتبر علاجاً لكثير من العقد النفسية والاضطرابات العاطفية تجنباً لما يسببه الكبت من أمراض مختلفة – وأصبح القانون يحرس التحلل الجنسي في كثير من الدول ، ولقد خرجت بذور هذه الدعوة الخبيثة في فلسفة فرويد ومن الفلسفات الاجتماعية الجانحة مثل الوجودية والماركسية وغيرها ، فلم يعد غريباً أن تتصادم تلك الفلسفات والمدارس مع القيم الدينية العريقة ، ولقد سار في هذا الركب الضال عدد غير قليل من الأطباء النفسيين وعلماء السلوك الانساني ، ووضعوا القوانين التي تجعل من الاباحية بل ومن الشذوذ الجنسي حقاً مكتسباً في بعض البلدان ... واختلط هذا الأمر بالاقبال على المسكرات والمخدرات ، مما زاد .. الطين بلة ....

فهل نجحت الاباحية الجنسية كعلاج ؟ ؟

ان الدراسات التي أجراها الباحثون أخيراً في أكثر الدول تحللا وتقدمـــاً أثبتت .. عكس ذلك تماماً وشهد شاهدون من أهلها ، فلقد لوحظ الآتي : –

أولا : انتشار الانهيارات العصبية ، والاضطرابات النفسية في تلك البلاد بنسبة أكثر من البلاد التي تحتمي في

ظل التقاليد والقيم الدينية ، وبرغم التخلف والفقر كما كثرت حوادث الانتحار مللا وهروباً مـــن الحياة التي أثقلتها الأحزان والآلام والضياع ، وانعكس ذلك على أجيال الشباب مما جعل تلك الدول .. تعتمد اعتماداً أساسياً على الكوادر الفنية العاملة التي تستوردها من الخارج ، وهكذا جر التحلل الجنسي إلى اضرار بنفوس الشباب وطموحهم ورسالتهم في الحياة .

ثانياً : ازدياد نسبة الاصابة بالأمراض السرية (التناسلية) وخاصة السيلان ... والزهري ، وما تجره تلك الأمراض من مضاعفات ، على الرغم من أن تلك الدول ، تمتلك امكانيات هائلة في وسائل الوقاية والعلاج ، فضلاً عن أنها تنظم تجـــارة الرقيق الأبيض وتجعلها تحت الرعاية الطبية الدائمـــة ، وتصدر لمن يمارسون تجارة الجنس التراخيص الطبية .

والاسلام منذ البداية نظم العلاقة بين الرجل والمرأة ، وجعلها تمضي في اطار .. ، الشرعية والقوانين السليمة ، عن فهم وادراك لحقوق الفرد والمجتمع ، كما وضع .... العقوبات المناسبة لجريمة الزنا .. ان الزنا في نظر الاسلام جريمة وليس علاجاً ولا حرية أو حقاً مكتسباً للأفراد ، ومن هنا كانت عقوبة الجلد والرجم أو القتل حسب الظروف .

هذا وقد تعرض الطب النبوي للجماع ووضع له بعض القواعد المنظمة (اذ لاحياء في الدين) لهذا نرى صاحب الطب النبوي يقول [1] .

« الجماع وضع في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصده الاصلية ، أحدها حفظ النسل ، ودوام النوع الانساني ... والثاني اخراج الماء الذي يضر احتباسه واحتقانه بجملة البدن ، والثالث قضاء الوطر ، ونيل اللذة ، والتمتع بالنعمة ... واحتباس المني قد يحدث أمراضاً رديئة منها الوسواس والجنون والصرع وغير ذلك ... ومن منافع الزواج غض البصر وكف النفس ، والقدرة على العفـــة عن الحرام ، وتحصيل ذلك للمرأة ... وعنه ﷺ « اني أتزوج النساء وأكل اللحم ، وأنام وأقوم ، وأصوم وأفطر ، فمن رغب عن سنّتي فليس مني » وقال « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحفظ للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فانه له وجاء » ومن حديث ابن عباس قال : لم تر للمتحابين مثل النكاح » .. ومما ينبغي تقديمه على الجماع ملاعبته .. المرأة وتقبيلها ، ومص لسانها ، ويذكر عن جابر بن عبد الله قال :

« نهى رسول الله ﷺ عن المواقعة قبل الملاعبة » ... وأنفع الجماع ما حصل بعد الهضم ، واعتدال البدن ...

---

(١) الطب النبوي ص / ١٩٤ – ص / ١٩٦ .

ولا ينبغي أن يستدعي شهوة الجماع أمر يتكلفها ، ويحمل نفسه عليها ... وجماع الحائض حرام طبعاً وشرعاً ... وهكذا نرى أنه لاعلاج بمحرم وأن الاسلام وضع الاداب والقواعد المنظمة للعلاقة الجنسية وحث على تهيئة الفرصة لزواج الشباب ، وقرر أن الزواج هو الحل السليم لمشاكل الكبت الجنسي والنفسي ، وعالج الاسلام هذه القضية بصراحة ووضوح تامين ، وألفت فيها كتب كثيرة في في التراث ، تعرضــت .... لتفاصيل العمليــة الجنسية ، والاشتراطات الواجبة حيالها ، لهذا فاننا نقول بان الاباحية الجنسية ليست علاجاً للكبت الجنسي والرواسب النفسية التي يخلفها الحرمان ، ولم يفت الاسلام هذا ، بل حذر بشدة من التبرج وابراز مفاتن المرأة ونهى عن الاختلاط الضار الذي يثير الشهوة ، ويؤدي للسقوط الأخلاقي ، ويغري بالفتنة والانحراف ، أي أنه تناول القضية من كل جوانبها ، ولم يغفل أي عنصر من عناصرها ..

رابعا ـ الشعوذة والخرافات العلاجية

في كل أمة من الأمم يلجأ البعض ـ وخاصة الطبقات الجاهلة إلى أساليب غريبة في العلاج ، يستخدمون فيها الشعوذة والدجل والخرافات ، كأن يسقي المريض مثلا شراباً معيناً ، ممزوجاً بدم حيوان ، أو تذبح دجاجات أو خراف ليس فيها علامات أو ذات لون خاص أو بالدخول

إلى القبور أو الطواف بالأضرحة أو التمسح بشجرة من الأشجار ، أو مبنى من المباني ، أو أكل بعض الحشرات أو الحيوانات التي تأكل وتؤكل ، وهذه أمور كلها تتنافى مع التجربة ومع الدراسات العملية ، ومع الاساليب التي اتبعها رسول الله ﷺ ، وفي سنن النسائي أن .. طبيباً ذكر ضفدعاً في دواء عند رسول الله ﷺ ، فنهاه عن قتلها ، وكان ﷺ يوصي مرضاه في بعض الأحيان بالذهاب إلى الطبيب ... الحاذق الماهر كجهة اختصاص ، ولم يعرف عنه الا أنه كان يوصي ببعض الرقي ، وهي لا تخرج عن كونها بعض أدعية لله وآيات من القرآن الكريم ، انطلاقاً من القاعدة الأساسية وهي أن الطبيب يصف الدواء وأن الله هو الشافي ، فاللجوء إلى الله القوي القادر أمر طبيعي ، ما دمنا نأخذ بالأسباب ، ونستفيد من التجربة ، ونملأ نفوسنا بالأمل وأخيراً أمرنا بالتداوي ، وأكد أن الله ما أنزل داء الا وأنزل له دواء كي نجد في البحث عنه ، بتوفيق الله وهديه .....

الطِّبُّ النَّبَوي وَالنَّوم

ظاهرة النوم من الظواهر المعجزة حقاً ، لقد استطاع العلماء أن يحددوا مركزاً للنوم في المخ وأجرى العديد من الدراسات على هذه الظاهرة كما أجريت تجارب خاصة على الانسان والحيوان وتبين منها ضرورة النوم لحياة الانسان وقد لوحظ أن هناك بعض الأمراض التي تسبب الأرق ولا يموت المريض بسببها مباشرة لكن السبب المباشر لانتهاء الحياة هو الأرق كما استطاع العلماء تقسيم النوم إلى مراحل وصفات وبيان كل مرحلة ، وأهمية الأحلام للصحة البدنية وللصحة النفسية خاصة ...

ومع ذلك فان النوم ما زال سراً من الاسرار العميقة .

ومن تدبر نوم الرسول ﷺ وجده أعدل نوم وأنفعه للبدن والأعضاء والقوى لانه كان ينام أول الليل ويستيقظ أول النصف الثاني ويستاك ويتوضأ ويصلي ، فيأخذ البدن

والأعضاء والقوى حظها من النوم والراحة وحظها من الرياضة مع وفور الاجر ، وهذه غاية صلاح القلب والبدن والدنيا والاخرة ، ولم يكن يأخذ من النوم فوق القدر المحتاج اليه ، ولا يمنع نفسه من القدر المحتاج اليه منه ، وكان يفعله على أكمل وجه الوجوه فينام على شقه الأيمن ، ذاكرا الله حتى تغلبه عيناه ، غير ممتلىء البدن من الطعام والشراب ولا مباشر بجنبه الأرض ، ولا متخذ للفرش المرتفعة بل مضطجع من أدم حشوه ليف ، وكان يضطجع على الوسادة ويضع يده تحت خده أحياناً :

ولقد مر النبي على رجل نائم بالمسجد منبطح على وجهه فضربه برجله وقال : — « قم واقعد فهذه نومة جهنمية » ولقد تعرض الذين كتبوا في الطب النبوي قديماً لفائدة النوم على الصورة التي ارتآها رسول الله وقالوا انها تساعد على الهضم ، وتريح القلب وتمكن الأعضاء من الراحة والاسترخاء ولقد نهى الرسول ﷺ عن النوم في الشمس، ومن الامور البديهية أن الشمس قد تؤدي إلى الاصابة بأمراض الجو الحار المعروفة وهي :

١ — الانهاك الحراري .

٢ — الانهيار الحراري .

٣ — ضربة الشمس .

٤ — تقلص العضلات المؤلم (الكرامب) .

وهي أمراض لها علاماتها وأعراضها المختلفة ولا يتسع المقام لذكرها .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب ان رسول الله ﷺ قال : « اذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ، ثم قل : اللهم اني أسلمت وجهي (نفسي) اليك ، ووجهت وجهي اليك وفوضت أمري اليك وألجأت ظهري اليك رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت ، واجعلهن آخر كلامك ، فان مت ليلتك مت على الفطرة .. »

وفي هذا الجو الروحي المريح يستلقي المؤمن متوضئاً مؤمناً وقد اسلم أمره كله لله هذه الكلمات الحلوة التي يتفوه بها المؤمن أفعل من أي منوم وأقوى من أي عقار يجلب النوم فهي تريح القلب والنفس وتؤدي إلى الاستقرار والهدوء واليقين وتبعد عن النفس هواجسها وأوهامها ...

والنوم الجيد كما يقرر الأطباء يساعد على الاسراع من عملية الشفاء ، ويقلل من مضاعفات المرض ، كما أنه يعيد إلى الجسم حيويته ، ويعمل على زيادة الوزن في فترة النقاهة ولا عجب ان أقيمت في امريكا عيادات خاصة للنوم ، يعالج فيها المصابون بالأرق وأغلبهم ممن يعانون من الأمراض النفسية .

والواقع أن الطب النبــوي لم يترك جانبــاً من جوانب الصحة العامة ، نفسية كانت أو عضوية الا وتعرض لها وأثبت فيها اعجازه ، الذي أكدت الدراسات الحديثة والتجارب التي أجريت على الانسان والحيوان ، فالانسان الذي يمنع من النوم بالوسائل الصناعية يفقد القدرة عــلى التفكير السليم والتركيز ويصاب بالتوتر وسرعة التهيج وانحراف المزاج ، كما يفقد الرغبة في الطعام والشراب ، ويتناقص وزنه تدريجياً ، وتسوء حالته النفسية لدرجة كبيرة وقد يصل إلى مرحلة الجنون ، .. ونفس الشيء حدث بالنسبة لحيوانات التجارب .

ان التفات الطب النبوي إلى أهمية النوم يدل على حكمة بالغة ، والمام شامل بما .. يحفظ على الانسان صحته وسعادته وقدراته الجسدية والعقلية والنفسية .

الطِبُّ النّبَوي وَآدابُ المِهْنَة

ان احترام الاسلام للعلم بشتّى فروعه وتقديره للعلماء على مختلف تخصصاتهم ودعوته للناس إلى التعليم والتحصيل وجعل العلم فريضة ، كل هذا قد فتح الآفاق أمام نهضته العلمية الرائدة في العصور التي تلت عصر النبوة ، وهذه حقيقة ثابتة لا خلاف فيها وقد يكون من الأمور الملفتة للنظر تنظيم مهنة الطب بعد الاعتراف بها ومزاياها ووضع الصفات اللائقة بالطب ، ومحاربة السحر والشعوذة والدجل ، كما أن الرسول ﷺ حدد مسئولية الطبيب المعالج اذا اخطأ ، وتعرض الفقهاء إلى قضية التضمين والتعويض في حالة العلاج الذي يؤدي إلى وفاة المريض .....

وفي مجال اختيار أحذق الأطباء ، ذكر مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم : « أن رجلا في زمن الرسول ﷺ جرح فاحتقن الدم ، وأن الرجل دعى رجلين من بني أنمار فنظرا

اليه ، فزعم أن رسول الله عليه وسلم قال لهما : أيكم أطب فقالا : أوفي الطب خير يا رسول الله ؟ فقال أنزل الدواء الذي أنزل الداء » .

ولقد دخل رسول الله ﷺ على مريض يعوده ، فقالوا ارسلوا إلى طبيب فقال قائل : وأنت تقول ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم ان الله عز وجل لم ينزل داء الا أنزل له دواء « أما فيما يتعلق بالمسئولية الملقاة على عاتق الطبيب ، والزامه بالضمان في أحوال معينة ، فقد جاءت على لسان رسول الله في بعض الأحاديث وتناول الشرح بالتفصيل وقد روى أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من تطبب — ولم يعلم منه الطب قبل ذلك — فهو ضامن » من هنا يتضح ايجاب الضمان على الطبيب الجاهل ، فإذا تعاطى علم الطب وعمله ، ولم يتقدم به معرفة ، فقد هجم بجهله على اتلاف الانفس وأقدم بالتهور على ما لم يعلمه فيكون قد غرر بالعليل فيلزمه الضمان لذلك ، وهذا اجماع من أهل العلم .

ولقد (١) قسم ابن القيم الاطباء في مجال المسئولية أو الضمان إلى خمسة أقسام كالآتي : —

١ — أحدها طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها ، ولم تجن

---

(١) الطب النبوي ص / ١٠٩ .

يده ، فتولد من فعله ـ المأذون من جهة الشارع ، ومن جهة من يطبه ـ تلف العضو أو النفس ، أو ذهاب صفة ، فهو لاضمان عليه اتفاقاً ....

(وهناك خلافات بين الفقهاء في هذه النقطة) .

٢ ـ القسم الثاني متطبب جاهل باشرت يده من يطبه فتلف به فهذا ان علم المجني عليه انه جاهل ولا علم له وأذن له في طبه لم يضمن ، ولا يخالف هذه الصورة ظاهر الحديث .

وان ظن المريض أنه طبيب وأذن له في طبه لأجل معرفته ـ ضمن الطبيب ما جنت يده وكذلك ان وصف له دواء يستعمله ، والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحذقه ، فتلف به ضمنه ....

٣ ـ القسم الثالث طبيب حاذق أذن له ، وأعطى الصنعة حقها لكنه أخطأت يده وتعدت إلى عضو صحيح فأتلفه مثل ان سبقت يد الخاتن إلى الكمرة ، فهذا يضمن لانها جناية خطأ ، ثم ان كانت الثلث ، فما زاد فهو على عاقلته فان لم يكن عاقلة ، فهل تكون الدية في ماله أو في بيت المال ؟ ؟ ؟

على قولين هما روايتان عن أحمد وقيل ان كان الطبيب ذمياً ففي ماله ، وان كان مسلماً ففيه الروايتان ... الخ .

٤ – القسم الرابع : الطبيب الحاذق الماهر بصناعته ، اجتهد فوصف للمريض دواء فأخطأ في اجتهاده فقتله فهذا يخرج على روايتين : احداهما أن دية المريض في بيت المال ، والثانية أنها على عاقلة الطبيب ، وقد نص عليهـــا الامام أحمد بن حنبل في خطـــأ الامام والحاكم .

٥ – القسم الخامس طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها فقطع سلعة من رجل أو صبي أو مجنون ، بغير اذنه أو اذن وليه ، أو ختن صبياً بغير اذن وليه ، فتلف فقال بعض أصحابنا يضمن لأنه تولد من فعل غير مأذون فيه ، وان أذن له البالغ أو ولي الصبي والمجنون لم يضمن ... الخ .

هذا ويلاحظ أن الطبيب في الحديث السابق يتناول من يطب بوصفـــه وقوله ، وهو الذي يخص باسم الطبائعـــي وبمروره وهو الكحال ، وبمبضعه ، (مشرطه) ... ومراهمه وهو الجرائحي (الجراح) وبموساه وهو الخاتن ، وبريشته وهو الفاصد ، .. وبمحاجمه ومشرطه وهو الحجام ، وبخلعه ووصله ورباطه وهو المجبر ، وبمكواته وناره وهو الكواء ، وبقربته وهو الحاقن ، وسواء كان طبه لحيوان بهيم أو انسان ، فاسم الطبيب يطلق على هؤلاء كلهم .

ويدخل في اطار تلك المسميات التي ذكرناها الطبيب

الباطني وطبيب العيون (الرمد) وطبيب العظام والجراحة وأخصائي الطب الطبيعي ... الخ .

ولم يكتف الشارع بتحديد المسئولية القانونية بالنسبة للخطأ الذي يقع فيه الطبيب وانما حدد من هو الطبيب والمريض وولي المريض .. ومتى يدفع الضمان ، ومن أين يدفع ؟ ؟ ولا أريد أن أستطرد في هذا الجانب الفقهي القانوني لانه ليس مجالنا الان ، وانما أردت ان أوضح الصورة المحددة العتيقة لابعاد مهنة الطب ، في اطار مفهوم الطب النبوي الشامل لانه مهنة دقيقة تتعلق بحياة الانسان بدنياً ونفسياً وعقلياً وليس من المعقول أن تترك هكذا بلا ضوابط أو رابط ، ولذلك كان الطب النبوي أسبق إلى الشرائع والآداب التي أحاطت المهنة بمفهوم شامل واضح .. بعيد عن الشطط أو المبالغة أو الاهمال ولم يستطع المشرعون المعاصرون .. أن يضيفوا أموراً جوهرية في هذا المجال .

ولكي يكون الطبيب ماهراً أو حاذقاً ، فقد وضع الدارسون الأقدمون ، من أطباء ومؤرخين وفقهاء، تصوراتهم الواقعية المقبولة ، مقتدين بالقيم والمبادىء التي جاءت بها الشريعة الغراء ، وبتجارب المؤرخين السابقين في الدول التي سبقت الدولة الاسلامية الأولى . ومن هذه الصفات أن يكون الطبيب ملماً بأنواع ... الأمراض حتى اذا ما ووجه بمرض من الأمراض عرف من أي نوع هو ، وعلى الطبيب أيضاً

ان يبحث عن سبب المرض (العلة) ومن الأمور الهامة أن يعرف الطبيب مدى قوة احتمال مريضه، وقدرته على مقاومة المرض ، ويقيم وضع مريضه تقييماً سليماً من كافة النواحي والوجوه ، حتى يستطيع أن يمضي في علاجه على هدى وبصيرة ، وعلى الطبيب أيضاً أن يعرف عمر المريض ، وعاداته ، لان لذلك صلة بتشخيص المرض ، واختيار العلاج المناسب ، والطبيب الحاذق هو من يهتم ببلد المريض وتربته ، وصلة مرضه بفصول السنة ، فمن الثابت حديثاً انتشار أمراض معينة في بيئات معينة وارتباط أمراض أخرى بحالة الطقس أو فصول السنة ، ولا يقف الامر عند تشخيص المرض – والعثور على الدواء بل أن يكون الطبيب ملماً بمضاعفات الدواء وأخطائه ان وجدت بحيث لا يستعمله الا تحت اشتراطات خاصة ، وبجرعات معقولة ، ولوقت محدود ، والطبيب الماهر هو الذي لا يهدف إلى ازالة العلة فحسب بل عليه الا يتسبب – بعلاجه – في حدوث مرض خطير ، أو مضاعفات أشد والا كان من الأفضل ترك الأمر على ما هو عليه ... والطبيب الحاذق عليه ان يعالج بأسهل السبل ، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء الا عند تعذره ، ولا ينتقل إلى الدواء المركب ، الا عند تعذر الدواء البسيط فمن سعادة الطبيب علاجه بالاغذية بدلا من الأدوية وبالأدوية البسيطة بدلا من المركبة .. وعليه أيضاً أن ينظر في العلة هل يمكن زوالها أم لا ؟ فان علم أنه لا يمكن زوالها

هل يمكن تخفيفها أو تقليلها أم لا ؟ فان لم يمكن تقليلها ، ورأى ان غاية الامكان ... ايقافها وقطع زيادتها ، قصد بالعلاج ذلك ...

وعليه ألا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ ، بل يقصد انضاجه ، فاذا تم نضجه ، بادر إلى استفراغه ، أي لا يصلح للطبيب الجراح مثلا ان يفتح خراجاً قبل اكتماله وتكون الصديد فيه والا اضر بالمريض من عدة نواح كما لا بد أن تكون للطبيب خبرة باعتلال القلوب والأرواح — (الأمراض النفسية) وأدويتها ، وذلك أصل عظيم في علاج الابدان ، فان انفعال البدن وطبيعته النفسية ، والقلب أمر مشهور ، وهذا الطبيب الذي يجمع بين طب البدن وطب النفس هو الطبيب الكامل ، والذي لا خبرة له بذلك لعدم المامه بالطب النفسي اساساً فانه يعتبر نصف طبيب حتى ولو كان حاذقاً في الامراض العضوية .

ومن المهارة والحذق في ممارسة مهنة الطب أن يتلطف الطبيب بمريضه ، ويرفق به ويكتسب ثقته ، وان يمزج في علاجه بين العلاجات الطبيعية والالهية ، والعلاج بالتخييل ويستعين على المرض بكل معين ..

وهناك أركان يدور عليها علاج الطبيب وتدبيره وهي : —

— حفظ الصحة الموجودة .

— رد الصحة المفقودة بحسب الامكان .

- ازالة العلة أو تقليلها بحسب الامكان .

- احتمال ادنى المفسدتين لازالة أعظمهما .

- تفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعظمهما .

ومن الحذق ان الطبيب حيث امكن التدبير بالأسهل ، فلا يعدل إلى الاصعب ويتدرج من الأضعف إلى الاقوى ، الا اذا خاف فوات الفرصة ، ولا يصلح ان يستمر في المعالجة على حال واحدة ، فتألفها الطبيعة ، ويقل انفعالها بها ..

واذا اجتمعت أمراض ، بدأ بالمرض الذي يكون برء الأمراض الاخرى موقوفاً عليه أو يبدأ بإزالة السبب ، واذا كان هناك حاد ومزمن ، فليبدأ بالحاد ، دون أن .. يغفل المزمن واذا اجتمع المرض والعرض ، بدأ بعلاج المرض الا اذا كان العرض أقوى فيكون تسكين الوجع أولا ...

هذا ما ذكر عن صفات الطبيب الماهر لدى الدارسين في مجال الطب النبوي ، وتلك هي النصائح التي يجب أن يترسم الطبيب خطاها ، فهل بعد ذلك زيادة لمستزيد » .

الطبُّ النّبوي وأمراض الوراثة

علم الوراثة من العلوم الحديثة ، وما انجز في مجاله يعتبر حيزاً ضئيلاً اذا ما قيس بما لم يكتشف بعد ، ومن الأمور الأولية في هذا العلم الحقائق التي عرفت عند دراسة الخلية وبالذات النواة والنوية ، واشتمالها على ما يسميه العلماء الكروموزومات والجينات تلك التي تحمل الصفات الوراثية المختلفة ، كلون البشرة والطول والقصر والملامح والقدرات العقلية ، والأنوثة والذكورة ، وبعض الأمراض المختلفة والوراثية وخاصة أمراض الدم كالهيموفيليا ، والبكم والصمم والتخلف العقلي وأحياناً أمراض البول السكري وارتفاع ضغط الدم الأولي والصرع وغيرها من الأمور الكثيرة التي تشمل بعض الامراض النفسية وثبوت انتقال هذه الأمراض أو بعضها وغيرها ، من الآباء إلى الأبناء أو الاحفاد ، ومن خلال الجهاز الوراثي الذي تحمله الخلية ، ونفس الشيء

يحدث بالنسبة للحيوان والنبات وكما أسلفنا فان دراسات علم الوراثة ما زال أمامها الكثير من الجهد .

ويظن بعض العلماء المتفائلين انهم يستطيعون التدخل لتخليص الانسان من بعض الامراض أو الاضطرابات التي تنتقل عن طريق الوراثة ، وفي بعض بلدان العالم اليوم نجد مكاتب خاصة لفحص الراغبين في الزواج وذلك لاكتشاف الأمراض التي يمكن أن .. تنتقل للأبناء والأحفاد وخاصة اذا كان الزوجان مصابين معاً بواحد من هذه الأمراض مما يجعل تعرض الأبناء للاصابة من هذه الأمراض اكثر احتمالا ومن ثم تقدم مكاتب فحص الراغبين في الزواج النصائح المفيدة في هذا المضمار .

واذا ما نظرنا في أحاديث رسول الله ﷺ ، وجدنا أنه ﷺ يوصي المسلمين في قوله بحديث معناه « تخيروا لنطفكم ولا تضعوها في غير الاكفاء لأن العرق — كما يروى عن المصطفى ﷺ : — دساس :

وبذلك وضع الرسول اللبنات الأساسية لعلم الوراثة ، والوقاية من الانزلاق إلى الزواج من « غير الأكفاء » فترى فكرة الكفء هي التي تقترب من الصورة المثالية دينا وأخلاقاً .. وجسماً ونفساً وعقلاً ، ولم يعد أحد في عالم اليوم ينكر ما للوراثة من أثر على الاجيال الجديدة فاذا كان الأب مصاباً بمرض السكر ، وكذلك الأم ، فان النسبة

الكبيرة من الأبناء تكون معرضة للاصابة بهذا المرض ، سواء من مرض البول السكري الظاهر أو الخفي واذا كان أحد الوالدين هو المصاب بهذا المرض ، فان النسبة تكون أقل ، والامهات المصابات بمرض الزهري مثلا ، يؤثرن على الأجنة وهي في بطونهن ، ولذلك قد يصبن بالاجهاض أو الولادة المبكرة ، أو يولد الجنين ميتاً أو مشوهاً ، وقد يموت بعد الولادة بفترة غير طويلة ، أو يعيش بعاهة من العاهات كالعمى والصمم والتخلف العقلي ، .. وهكذا نرى حرص الرسول ﷺ على تعليمنا بأن نختار الزوجة الكفء أو الزوجة المناسبة ، ولقد تنبه الأطباء الأقدمون الذين تربوا في أحضـــان الحضارة الاسلامية إلى هذه الأمور عامة ، وخاضوا فيها على الرغم من ضعف امكانياتهم العملية ، وعدم امتلاكهم للأدوات والآلات والوسائل المختلفة التي نكتشفها اليوم ، كالمجاهر (الميكروسكوبات) الالكترونية والمواد الكيمائية المستعملة في صبغ اجزاء الخلية والتجارب المختلفة على النبات والحيوان ... والانسان وأحاديث الرسول في هذا المجال متنوعة ، ولكنها تحث على اختيار الاكفاء من الزوجات ونعود فنؤكد ان الطب النبوي لم يترك مجالا من المجالات المتعلقـــة بالصحة الا وتعرض لها ، وفي إطار الامكانات العملية ، والتجارب التاريخية ، والملاحظات التي سجلها العلماء في صدق ونزاهة .

خَاتِـمَة

لا شك أن وضوح التاريخ أمام الطب النبوي كان هو البداية الصحيحة للنهضة الطبية الاسلامية في العصور اللاحقة، ففي مدرسة الطب النبوي تخرج عمالقة الطب الانساني كالرازي وابن سينا والزهراوي وابن النفيس وغيرهم، واذا نظرنا إلى تراث هؤلاء الاطباء وجدناهم قد قطعوا مرحلة كبيرة في الطريق فوضعوا الكثـــير من الأمـراض وعلاماتها وأعراضها وتشخيصها وما ينفع في علاجها، كالحصبة والجدري وأمراض الرئة كالسل، وأمراض الجذام والبرص والملاريا وأنواع الصداع المختلفة، .. وأمراض الجهاز البولي والهضمي والعصبي وغيرها وكذلك وصف لبعض الأمراض النفسية واساليب العلاج المتطورة فيها، كما انجز الصيادلة المسلمون قدراً لا بأس به من التقدم في مجال العقاقير الطبية وتحضيرها وحصرها واستخدام

الاعشاب المختلفة لاستخلاص الادوية منها ، وكثيراً منها ما زال معمولا به حتى يومنا هذا ، فكانت هناك الادوية المفردة والادوية المركبة .

ولقد بدأت النهضة الأوروبية الطبية على أساس التراث الطبي الاسلامي ، فترجم إلى اللاتينية وغيرها من اللغات الأوروبية المؤلفات العديدة لأطباء المسلمين في المشرق والمغرب وكانت هذه المؤلفات المترجمة تدرس في الجامعات الأوروبية لقرون . .. وتحتفظ المتاحف العالمية حتى اليوم بتلك المخطوطات الطبية ، وكذلك الآلات... الطبية الجراحية والآلات التي اخترعها الزهراوي طبيب الاندلس وخاصة « الجفت » الخاص بالولادة المتعسرة ، وهذه الاثار برغم العلم المتقدم المعاصر —تعتبر مفخرة من مفاخر العقل الانساني وقدرته على التقدم والابتكار ..

ان تاريخ العلم الانساني حلقات متصلة ، وقد ساهم العلم الاسلامي في هذا .. المضمار بجهود خلاقة كثيرة كانت هي الأساس المتين الذي قامت عليه النهضة العلمية المعاصرة .. ان الانسان — في أي زمان وأي أرض — يقف مبهوراً أمام تلك المنجزات . ويعجب أشد العجب وهو يرى الاعجاز العلمي الذي تنطق به أحاديث الرسول في الطب النفسي والطب العضوي والطب الوقائي . وتنظيم مهنة الطب وأصول علم الوراثة، وتلك النظرة الشاملة الواعية للانسان

ككائن حي يتأثر بكل ما حوله من بيئة وجو وظروف متباينة وسلوك متنوع وعادات وتقاليـــد .. اننا في الواقع نمتلك أعظم رصيدلنهضة كبرى لكننا لا نهتم بتراثنا الخالد الاهتمام اللائق به،ومن العجيب ان المؤلفات التي تناولت فلاسفتنا واطباءنا ، كتبها باحثون اجانب لا ينتمون إلى جنسياتنا ، ولا يؤمنون بديننا ، ولكنهم لم يستطيعوا سوى ان يحنوا رؤوسهم احتراماً لهذا التراث الرائع الذي يشكل فصولاً ضخمـــة في تاريخ الابداع ــ الانساني ، والتراث العالمي الذي أخذ بيد البشرية إلى التقدم .

والتطور ، لا في نطاق الطب وحده ، لكن في نطاق العلوم والمعارف الانسانية المتنوعة وصدق الله العظيم اذ يقول وقوله الحق :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »

وبعد ،

ما أحوجنا لأن ندرس لأبنائنا في المدارس ، بل وفي كليات الطب هذه الأصول العلمية والجهود البارزة في مجال الطب النبوي ، حتى تستأنس اجيالنا الجديدة بذلك الكفاح المشرف للرعيل الاول من بناة الدولة الاسلامية ، وعلى عاتق وسائل الاعلام الحديثة ايضاً في بلادنا - كالتلفزيون والإذاعة والصحف والمجلات والسينما - أن تقوم بدورها في مجال التعرف بحضاراتنا العريقة ، احقاقاً للحق ، وبعثاً للأمل في قلوب الشباب ، وبعثاً لحركة إسلامية واسعة... على الأسس الصحيحة السليمة .....

المقترحات والتوصيات

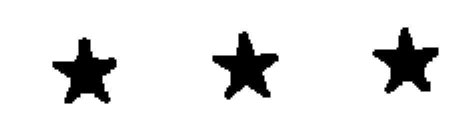
أولا : أن يدرس الطب النبوي في كليات الطب خاصة، والكليات العلمية بصفة عامة.

ثانياً : أن يضمن في كتب تلامذة المدارس بمختلف المراحل كلون من الثقافة الصحية والثقافة الاسلامية أيضاً (وخاصة في كتب العلوم واللغة العربية، اللغة الانجليزية).

ثالثاً : أن تهتم وسائل الاعلام المختلفة وخاصة التلفزيون والإذاعة والصحافة بهذا الموضوع وغيره من الموضوعات ذات الصبغة العلمية، والوثيقة الصلة بحياة الناس في إطار المفهوم الإسلامي الشامل.

رابعاً : أن تطبع مثل هذه البحوث في كتيبات وبأسلوب مبسط وتوزع بالمجان على من يطلبها ويا حبذا

لو صدرت منها بعض الطبعات بلغات أجنبية لنشر الدعوة والتوعية بالأسس العامة للحياة الإسلامية وحياة المسلم .



المراجع

(١) زاد المعاد لابن قيم الجوزية .

(٢) الطب النبوي لابن قيم الجوزية .

(٣) احياء علوم الدين للغزالي .

(٤) الموطأ للامام مالك .

(٥) صحيح البخاري للبخاري .

(٦) الصحة دنيا ودين ـــ منشورات وزارة الصحة / الكويت .

(٧) الاسلام والصحة ـ ثلاثون حديثاً اذاعياً للمؤلف / إذاعة أبو ظبي .

(٨) الصوم والصحة ـ مطبوعات مجلة الوعي الكويتية الاسلامية .

(٩) السياسة الشرعية ـ ابن تيمية .

(١٠) المخدرات في رأي الإسلام ـ الدكتور حامد جامع والعقيد محمد فتحي عيد .

(١١) مجلات طبية :

أ ـ مجلة الدكتور .

ب ـ مجلة طبيبك الخاص .

(١٢) المؤلفات الطبية الأكاديمية في الأمراض الباطنية الوقائي وغيرها (باللغة الانجليزية) .

(١٣) الطب الإسلامي : الدكتور عبد اللطيف البدري .

★ ★ ★

للمؤلف

● روايات

١ – الطريق الطويل رواية
٢ – اليوم الموعود رواية
٣ – في الظلام رواية
٤ – عذراء القرية رواية
٥ – نور الله (١) رواية
٦ – نور الله (٢) رواية
٧ – النداء الخالد رواية
٨ – رأس الشيطان رواية
٩ – أرض الأنبياء رواية
١٠ – ليالي تركستان رواية
١١ – عمالقة الشمال رواية
١٢ – عذراء جاكرتا رواية
١٣ – عمر يظهر في القدس رواية
١٤ – دم لفطير صهيون رواية
١٥ – حمامة سلام رواية
١٦ – قاتل حمزة رواية
١٧ – مواكب الأحرار رواية
١٨ – طلائع الفجر رواية
١٩ – ليل الخطايا رواية
٢٠ – رحلة إلى الله رواية
٢١ – لقاء عند زمزم رواية
٢٢ – على ابواب خيبر رواية
٢٣ – الربيع العاصف رواية
٢٤ – الرايات السوداء رواية
٢٥ – ليل العبيد رواية
٢٦ – أميرة الجبل رواية
٢٧ – الذين يحترقون رواية
٢٨ – المجتمع المريض رواية

● مجموعات قصص قصيرة

٢٩ – موعدنا غدا قصص قصيرة
٣٠ – العالم الضيق قصص قصيرة
٣١ – عند الرحيل قصص قصيرة
٣٢ – دموع الأمير قصص قصيرة
٣٣ – فارس هوازن قصص قصيرة
٣٤ – حكايات طبيب قصص قصيرة

● دراسات

٣٥ – اقبال الشاعر الثائر دراسة
٣٦ – شوقي في ركب الخالدين دراسة
٣٧ – الطريق إلى اتحاد إسلامي دراسة
٣٨ – الاسلامية والمذاهب الأدبية دراسة
٣٩ – الاسلام والقوى المضادة دراسة
٤٠ – نحن والاسلام دراسة
٤١ – تحت راية الاسلام دراسة
٤٢ – حول الدين والدولة دراسة
٤٣ – أعداء الاسلامية دراسة
٤٤ – في رحاب الطب النبوي دراسة
٤٥ – شعر اغاني الغرباء ديوان شعر
٤٦ – عصر الشهداء ديوان شعر
٤٧ – كيف ألقاك
٤٨ – نحو العلا ديوان شعر

● دراسات طبية

٤٩ – الدواء سلاح ذو حدين صحة
٥٠ – الصوم والصحة صحة
٥١ – الدين والصحة صحة
٥٢ – الغذاء والصحة صحة
٥٣ – التيفوئيد صحة
٥٤ – الدفتريا عدو الطفولة صحة
٥٥ – مستقبل العالم في صحة الطفل صحة
٥٦ – الجدري والجديري صحة
٥٧ – التحصين وقاية لطفلك صحة
٥٨ – احترس من ضغط الدم صحة

● مسرحيات

٥٩ – على أسوار دمشق مسرحية

فهرس المحتويات

تطلب جميع منشوراتنا من

الشركة المتحدة للتوزيع

بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة

هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ص.ب: ٧٤٦٠ - برقياً: بيوشران